كامل الشناوي

الذين أَحَبُّوا «ميّ»

و«أوبريت جميلة»

الكتاب: الذينَ أَحَبُّوا «ميّ» و«أوبريت جميلة»

الكاتب: كامل الشناوي

الطبعة: ٢٠٢١



الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.bookapa.com **E-mail:** info@bookapa.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

الشناوي، كامل

الذينَ أحَبُّوا «ميّ» و«أوبريت جميلة» / كامل الشناوي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٩٥ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٥ – ١٠٤ – ٩٩١ –٩٧٧ –٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٢١٥٩ / ٢٠٢١

الذينَ أحَبُّوا «ميّ»

و«أوبريت جميلة»



هؤلاء .. أحبوا .. «مي»!!

* العقاد.. وصادق الرافعي.. ومصطفى عبد الرازق... وولي الدين يكن.. وخليل مطران.. وأنطون الجميل.

* لوحات حية.. من صالون «مي».

ما أكثر الذين كتبوا عن «مي» ووضعوا عنها بحوثًا ودراسات.. ولكن ما ظهر من هذه البحوث والدراسات ربما رسم صورة «مي».. الكاتبة المفكرة.. ولم يرسم صورة «مي» الإنسانة التي أحبت.. وتعذبت. وتحصنت بعفافها... وماتت شهيدة!!

«مي»... التي أحبها عباس العقاد.. ومصطفى صادق الرافعي.. ومصطفى عبد الرازق.. وولي الدين يكن.. وخليل مطران .. وجبران خليل جبران.. وأنطون الجميل.

وقبل أن أتحدث عن هؤلاء.. يجب أن أقول شيئا عن «مي»..

.. من هي؟؟

.. ما أسمها الحقيقي؟؟

.. كيف كانت تعيش؟؟

.. كيف دخلت مستشفى «العصفورية» في لبنان؟؟

.. كيف عادت إلى مصر.. ورقدت في ثراها رقدتها الأخيرة عام ١٩٤١؟؟

من هي..؟؟

ولدت «ميّ» في فلسطين عام ١٨٩٠، وعقب ولادتها أنتقلت مع والديها إلى لبنان، فدخلت مدرسة للراهبات، وأتقنت الكتابة باللغة الفرنسية، وذاع صيتها الأدبي وهي في العشرين من عمرها، وصحبت أبويها إلى مصر قبيل الحرب العالمية الأولى.

ولقد أختار والدها – الأستاذ إلياس زيادة – مصر موطنًا له، وأصدر جريدة «المحروسة».. يومية.. سياسية.. مسائية.. أصدرها باللغة العربية، فأتجهت «مي» إلى تقوية أسلوبها العربي... فدرست آداب اللغة، وتاريخ العرب، والفلسفة الإسلامية، وألتحقت بالجامعة المصرية القديمة، وأخذت تنشر مقالاتها باللغة العربية في جريدة «المحروسة» وفي المجلات الأدبية التي كانت مزدهرة في ذلك الحين.. مثل الهلال والمقتطف والزهور.

كان أسمها «ماري زيادة» فأختارت لتوقيع كتاباتها أسم «مي» وقد لصق بها هذا الإسم العربي، في اللغة العربية، وفي جميع اللغات التي أنتقلت إليها آثار «مي».

وكانت تتقن ثماني لغات عدا اللغة العربية، وقد ألفت ديوان شعر بالفرنسية، وقصة باللغة الإنجليزية، وألفت باللغة العربية كتبًا كثيرة من بينها «دمعة وإبتسامة» و«بين الجزر والمد» و«ظلمات وأشعة» و«كلمات وإشارات» و«باحثة البادية».

ولكن هذا لا يكفي لتعريف قارئ اليوم «بمي».. فلنسرق بضعة أسطر من صميم الموضوع.. وهو حب بعض الأدباء «مي»... وحب «مي» بعض الأدباء!!

لقد بدأت «مي» حياتها الإجتماعية بأن أعدت في بيتها «صالونًا» يجتمع فيه الأدباء وأهل الرأي يوم الثلاثاء من كل أسبوع، وكان هذا الصالون في منزل بشارع عدلي.. مكان محطة البنزين القائمة هناك الآن..

وقد بقيت في هذا المنزل من عام ١٩١٤ إلى عام ١٩٢١.. ثم تركته وسكنت في دور من عمارة تملكها جريدة «الأهرام»، وهي العمارة التي كانت تشغلها إلى وقت قريب أقسام إدارة «الأهرام».

رواد الصالون

وكان يتردد على صالون «مي» الأستاذ الدكتور طه حسين عميد الأدب العربي. وشيخ العروبة أحمد زكي، وشيخ القضاة عبدالعزيز فهمي، وشيخ الشعراء إسماعيل صبري، وشيخ الصحافة داود بركات، وشيخ المفكرين الدكتور شبلي شميل، والأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق، وأمير الشعراء أحمد شوقي، وشاعر الأقطار العربية خليل مطران، وشاعر النيل حافظ إبراهيم، والشاعر الثائر ولي الدين يكن، والأديب المحافظ مصطفى صادق الرافعي، والكاتب الكبير الأستاذ أنطون الجميل.. وأستاذ الجيل أحمد لطفي السيد، والأستاذ الدكتور منصور فهمي، والكاتب الكبير عباس محمود العقاد، وشيخ الخطاطين نجيب هواويني!

وكان يوم الثلاثاء يومًا مقدسًا عند رواد «الصالون».. قلما يتخلف منهم أحد في هذا اليوم عن زيارة «مي» إلا إذا كان مريضًا، أو على سفر!

وقد كان شيوخ الصالون يحسون «لمي» في نفوسهم عاطفة أختلطت ملامحها... أهي عاطفة حب أبوي، أم هي عاطفة حب عذري؟

يمرض إسماعيل صبري ولا يستطيع رؤية «مي» يوم الثلاثاء فيهدد إذا لم يشف يوم الثلاثاء القادم.. فلن يعترف بهذا اليوم أبدًا.

ولا يكتفي بهذا.. بل يقول: وأستغفر الله من لحظة... من العمر لم تلقني فيك صبا!

* * *

الطبيب الملحد

وكان الدكتور شبلي شميل، شيخًا هرمًا، طاعنًا في السن. وكان مفكرًا، فيلسوفًا، وهو أول من نقل «داروين» إلى اللغة العربية، وقد شرح نظرية «داروين» في التطور، تحت عنوان: «النشوء.. والإرتقاء»، وكان ينظم شعرًا سخيفًا، ويكتب بأسلوب جديد قوى؛ وقد أنتهى به تفكيره إلى الإلحاد عن الأديان جميعًا، وإنكار وجود الله... وكانت «مي» تقول له: إني أعجب لك!.. كيف تكفر بالله.. وتؤمن بداروين!!

وكانت تقول عنه إنه متعصب للإلحاد!! وترى أن منطقه غير مفهوم!..

وكان شبلي شميل عصبيًا، دمويًا.. مريضًا بالربو، في صوته غلظة، وفي حركاته حماقة، وكثيرًا ما رفع عصاه في صالون «مي» مهددًا بضرب من يجادلونه في عدم وجود الله... وقد كان نجيب هواويني ضحيته أكثر من مرة!

كان حافظ إبراهيم يقول إن الدكتور شميل أعجبه صوت أحد المطربين، فظل يستعيده، وبدلًا من أن يقول مثلنا: الله.. الله.. كان يقول: الطبيعة.. الطبيعة!!

وطلب أحد مرتزقي الصحافة من الدكتور شميل نقودًا فلما رفض.. هدده الصحفي بكتابة مقال يؤذيه... فضحك شميل وقال: وهل تظن

أني ممن يخافون التهديد؟ هل أنا عمدة؟ أنا لا أعبأ بالتهديد!..

فقال الصحفي المرتزق: هل تعرف موضوع المقال؟

فقال شميل: لا يهمني!

فقال الصحفي المرتزق: سأثبت في المقال وجود الله...

وهنا فزع شميل وقال: ما دام الأمر كذلك... خذ ما تشاء!!

وهكذا.. كانوا يشهرون بالدكتور شميل، وكان هو يجهر بإلحاده، حتى إن حافظ إبراهيم رثاه بقصيدة قال فيها!

جزع العلم يوم مت ولكن أمن الدين صولة الكفار

* * *

شيخ العروبة

وكانت علاقة أحمد زكى شيخ العروبة «بمي»، علاقة أبحاث لغوية.. وكان يشغل منصب السكرتير العام لمجلس النظار، وكانت له مقالات غريبة، وعناوين أشد غرابة.. وقد بحثت معه، أو أقترحت عليه، إنشاء مجمع لغوي، على مثال مجمع الخالدين في فرنسا. ولم يكن من الرواد الدائمين للصالون.

* * *

شيخ الصحافة

وكان داود بركات يحضر لصالون «مي» خلال فترات الراحة بين عمله كرئيس تحرير للأهرام. وداود بركات – برغم قدرته العظيمة في الكتابة السياسية – لم يكن يميل إلى الأدب والشعر والفلسفة إلا بقدر ضئيل.. فكان يطرق باب الصالون.. مستأذنًا في الدخول، وما هي إلا دقائق معدودات.. حتى يغلق الباب وراءه ويخرج من غير إستئذان!!

* * *

مداعبات مطران

وكان شاعر الأقطار العربية خليل مطران أكثر رواد الصالون في عدد الساعات التي يقضيها مع «مي». كانت أحاديثه لا تنتهي، ومداعباته «لمي» حبيبة إلى نفسها. وكان له من ذكرياته الشخصية، وثقافاته المتعددة معين يستمد منه حديثه ودعاباته.

كان يأخذ على «مي» أنها تجامله إلى حد الرياء.. رآها مرة وهي تودع إحدى صديقاتها، وقد أستغرقت لحظات الوداع بضع دقائق.. فذهب إلى «مي» وصديقتها فعلم من حديثهما أن الصديقة مسافرة إلى حلوان.. وعاد إلى الصالون..

ولما لمح «مي» عائدة.. أصطنع البكاء فقالت «مي» لماذا تبكي؟

فقال: أبكي سفر صديقتك!

فقالت: ولكنها مسافرة إلى مكان قريب.. إلى حلوان!

فقال خليل: ما دام المكان قريبًا.. ففيم هذا الوداع الحار.. والله لولا أني أعرفك.. لقلت إن هذا رياء!

فأبتسم مصطفى عبد الرازق وقال: إن «مي» لا ترائي، ولكنها تجامل في رشاقة!

* * *

البائع والمالك

وكان أنطون الجميل يحب «مي» في عنف وكتمان وكبرياء.. وكان يعتقد أنها تشعر به كما يشعر بها.

وسئلت «مي» عن أنطون الجميل الأديب، وخليل مطران الشاعر، فقالت: إن أنطون بائع جواهر.. وخليل مطران يملك جواهر!

* * *

عبد العزيز فهمي

وكان عبد العزيز فهمي الرجل المتمرد الثائر، يجلس في صالون «مي» فلا يشارك بكلمة، ويكتفي بالإصغاء، والنظر.. كان يستحي من

المجالس التي تضم إمرأة، ولو كان عقلها عقل فيلسوف!

سأله خليل مطران يومًا: لماذا لا تتكلم؟

فقال: إذا تكلم لطفي السيد فقد وجب أن نصغي!

فقال خليل: وإذا تكلمت أنت فكلنا آذان صاغية..

فضحك وقال: النظر هنا، وأشار إلى «مي» خير من الكلام، وخير من الإصغاء... وكانت هذه هي عبارة الغزل الوحيدة التي نطق بها عبد العزيز فهمي في صالون «مي»!

* * *

الرافعي..

وكان مصطفى صادق الرافعي، كاتبًا وشاعرًا، كان يحمل لواء القديم بإحدى يديه، ويحمل باليد الأخرى، سيفًا، أو رمحًا، ويطارد المجددين ويهاجمهم في قسوة، وجرأة ومرارة، وقد نشبت بينه وبين العقاد وطه حسين معارك أستعمل فيها من الألفاظ والعبارات ما لم يحدث له مثيل في الأدب العربي كله على الإطلاق! وليس هذا مهمًا... ولكن المهم أن مصطفى صادق الرافعي كان موظفًا في محكمة طنطا، وكان يحضر إلى القاهرة كل يوم ثلاثاء ليحضر صالون «مي» ويسافر صباح الأربعاء إلى طنطا ليباشر عمله، ثم يعود إلى القاهرة يومي الخميس والجمعة، ويقضي اليومين في زيارة «مي».. وقد أحب «مي» ونظم فيها شعرًا كثيرًا، وكتب

«رسائل الأحزان»، وكان يعتقد أن «مي» تحبه.. وكان رواد «الصالون» يسخرون منه، ويعلقون على حركاته بصوت خافت، وكان لا يسمعهم، لأنه كان أصم.

كان رواد «الصالون» يتأنقون في ملابسهم وحلاقة ذقونهم.. إلا واحدًا... هو صادق الرافعي، كان يصل من المحطة رأسًا إلى «الصالون» وعليه كل ما في الطريق بين طنطا والقاهرة من غبار.

ولمحه حافظ إبراهيم يومًا وقد جاء في بدلة جديدة فقال له: أنت متنكر يا صادق.. أمال فين التراب اللي دايمًا على بدلتك!

* * *

الشاعر الموسيقار!

وكان أحمد شوقي أمير الشعراء، قليل التردد على صالون «مي» وكعادته لم يكن يجادل، أو يناقش بل كان يتأمل ويحلق بخياله مع دخان سيجارته، فإذا هم بالإنصراف وقف مع «مي» على إنفراد يقول لها كلمة مجاملة، ويسمع منها مثل هذه الكلمة!

كانت تصف شوقي بأنه يحب أن يعيش في وقت واحد، على إنفراد ومع الناس... فهو يجلس في «الصالون» بجسمه، أما تفكيره وشعوره.. فهما في مكان آخر لا أحد يعلمه... وهو أيضًا لا يعلم أين هذا المكان!!

وكانت تعجب بشعر شوقي، وتشير إلى ما فيه من موسيقى، وتسمي شوقي الشاعر الموسيقار.

* * *

صلات أدبية

كانت صلة طه حسين ومنصور فهمي «بمي»، صلة أدبية بحتة، لم يزرها طه حسين إلا مرات قليلة، وكانت تؤثره بالتقدير والإعجاب، وكانت مناقشات الدكتور منصور فهمي معها تدور حول الفلسفة أو الروحانيات. أما نجيب هواويني فكانت صلته بها صلة الصداقة المتينة.. أو كما قالت هي: صداقة مزمنة!

* * *

لطفي السيد

وكان لطفي السيد كما ظل حتى آخر أيامه، رجل «صالون» محدثًا لبقًا، يتخير الجملة التي تلفت الذهن والأذن، ويحسن إستعمال صوته إرتفاعًا وإنخفاضًا، وكان يعرف كيف يدس بين كلامه عن الفلسفة أو الأخلاق أو الدين أو الأدب.. كلمة نسيب وغزل!

وكانت الأناقة حائرة بين قوامه، وهندامه وكلامه! ولكنه لم يعشق «مي»... ولم تعشقه «مي»... كان يحب جوها المشبع بالجمال،

والذكاء والثقافة... جميعًا، وكانت تحب جوه المشبع بالذكاء والثقافة وحدهما!

قدم إليها أحد أصدقائه من المصريين، فأخذ صديقه هذا يحدثها باللغة الفرنسية، فلما غادر الصالون قالت للطفي السيد غاضبة: كيف يحدثني باللغة الفرنسية؟

فقال: هل كان يجب أن يحدثك بجميع اللغات التي تعرفينها؟ فقالت: لا... يجب أن يفهم أني لست «خواجاية».. أنا عربية، فلا ينبغي أن يكلمني إلا باللغة العربية!

* * *

الذين أحبوها.. وربما أحبتهم!

أما الذين أحبوها، وربما أحبتهم.. فهم عباس العقاد ومصطفى عبد الرازق، وولي الدين يكن!

ولكني لم أحدثك عنهم... فقد طال الكلام أكثر مما ينبغي. ولم تعرف بعد كيف كانت «مي» الفتاة العذراء البتول الفيلسوفة المتدينة... كيف جنت من العفة والكبت، وكيف شفيت من جنونها.. كيف ماتت وكيف وقف على قبرها هؤلاء الذين أحبوها فقال عباس العقاد والدموع تطفر من عينيه:

«كل هذا في التراب»... آه من هذا التراب!!» وقال مصطفى عبد الرازق وصوته مخنوق بالبكاء:

«شهدنا مشرق «مي» وشهدنا مغيبها، ولم يكن طويلًا عهد «مي».. على أن مجدها الأدبي كان طويلًا».

أما ولى الدين يكن الشاعر المتمرد النابض بالألم، والفكر والحياة، فلم يقل شيئًا في موت «مي».. فقد مات قبل أن تموت هي بثمانية عشر عامًا، وقد بكته «مي».. بكته بعينيها، وقلبها، وقلمها.. وكان بينهما حب جارف.. ووجد مشبوب الأوار.

لقد كنت أظن أن ولي الدين يكن هو الشخص الوحيد الذي أحبته. ولكن العقاد يقول: لا..

لماذا يقول: لا..؟!

كيف أصيبت «مي» بالجنون؟؟

الحب العاصف بينها وبين العقاد وممارسة المرأة لحق الانتخاب

أحبت «مي» الشاعر «ولي الدين يكن» وتدلهت به، وبكته بكل قلبها، وكل عقلها، ولبست عليه ثوب الحداد... وكنت أعلم أنه الأديب الوحيد الذي عشقته «مي» وشغفت به حباً...

ولكن الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد قال لي: لا... ليس ولي الدين هو الأديب الوحيد الذي أحبته «مي»!

فلماذا قال العقاد هذا؟

وأجيب عن هذا السؤال، فأقول إني قدأاتصلت بالأستاذ العقاد أسأله شيئًا من ذكرياته عن «مي»، فتكلم عن أدبها، وذكائها، وروحها، وتدينها، وطريقتها في التعبير، والأداء، وحرصها على إتقان كل حرف تكتبه، وإجفالها الشديد من النقد!

وقلت له: إني لمحت من خلال دواوين شعره صورًا عديدة في... وإذا لم يخني تكهني.. فإن أسم «هند» الذي ورد في أكثر من مقطوعة شعرية تفيض بالغزل والشوق والحنين.. ليس إلا أسمًا مستعارًا «لمي»... وعدد حروف «هند» مثل عدد حروف «مي» إذا حسبنا شدة الياء في أسم «مي» حرفًا... وكلا الإسمين من وزن واحد.. فأحدهما يحل محل الآخر في بيت الشعر دون أن يكسره!

وأطلق العقاد ضحكة مكبوتة وقال:

– أظن إستنتاجك هذا صحيحًا!

قلت: ولقد رأيت كل ملامح «مي» في قصة «سارة».. إن «مي» هي البطلة المنافسة «لسارة».. لقد وصفت إحداهما فقلت إن حولها نهرًا يساعد على الوصول إليها... ووصفت الأخرى فقلت إن حولها نهرًا يمنع من الوصول إليها..

إن «مي» هي هذه الأخرى ولا شك!

وأبدى العقاد دهشته من إستنتاجي وقال: لقد حاولت جهدي أن أكتم هذه الحقيقة عن أقرب الناس إلي، وكان في عزمي أن أجهر بها يوماً، ولكن بعد أن يصبح هوانا العفيف تاريخًا يجب أن يسجل، وإن عندي من رسائل «مي» إلي، وعندها من رسائلي إليها، ما يصلح كتابًا يصور علاقتي بها، وهي علاقة قائمة على الحب المتبادل!

وقلت له: لقد ظننت أن ولي الدين يكن هو الإنسان الوحيد، أو الأديب الوحيد الذي أحبته «مي»!

فقال العقاد: لا! ليس هو الوحيد!

قلت: وهل كانت تحبك كما تحبها؟

فقال : ليس من حقي أن أجيب عن هذا السؤال... ولكني عندما أقول لك إن ولي الدين ليس هو الوحيد الذي أحبته «مي»، فأنا أعرف ماذا أقول!

ورجعت إلى صديق للعقاد، كان يلازمه منذ ٣٠ عامًا بلا إنقطاع، وسألته عما يعرفه عن علاقة العقاد «بمي».. فسرد لي تاريخًا طويلًا من الأزمات النفسية التي عاناها العقاد في حب «مي» وقال إنه فهم من العقاد أن «مي» تبادله حبًا بحب، وذكر لي الصديق أن العفة كانت علاقة مميزة «لمي» الأديبة، و«مي» الأنثى.. وهذه العفة، أو الكبت، هو الذي أورثها الجنون...

وقال: إن أقصى ما ناله العقاد من «مي» قبلة على جبينها، أو قبلة على جبينه، وقد كانت «مي» ضنينة بقبلاتها على كل من أحبوها، ومع ذلك يمكنك أن تقول إن الحب عصف بقلبها وقلب العقاد.. وقد رأيتهما يسيران في الطريق معًا، وتتبعت خطواتهما عن بعد، فإذا هما يدخلان كنيسة... وكانت الساعة السابعة مساء!

وفي اليوم التالي سألت العقاد أين كنت مساء أمس؟

فقال: كنت خارج البيت!

ولما فاجأته بأني رأيته مع «مي» يدخلان كنيسة، أبتسم وقال: وماذا ظننت؟

فقلت: لقد ظننت أنكما كنتما تعقدان قرانكما هناك!

فضحك ملء حنجرته.. وقال: لقد دعوتها إلى السينما، فقبلت الدعوة، وأشترطت أن تذهب إلى سينما الكنيسة.

وقلت لمحدثي: وهل في الكنائس أماكن معدة لمشاهدة أفلام السينما:

فقال: عندما طغت السينما بأفلامها المغرية خشيت الكنائس أن تؤثر الأفلام في الأخلاق الفاضلة والعاطفة الدينية، فأعدت في أبنيتها أماكن لعرض الأفلام، وكانت تتخير منها ما لا يتنافى مع الآداب المرعية. وبذلك لا تحرم المتدينين من مشاعدة الأفلام القيمة.

وأستطرد محدثي يقول: إن هذه أول مرة تخرج فيها «مي» بصحبة صديق لها وتقضي معه وقتًا في السينما.

ومضى يقول: لقد كانت «مي» تحب العقاد الأديب الكاتب الشاعر، ولكنها لم تكن تحب العقاد السياسي، وحاولت أن تقنعه بترك الكتابة في السياسة.. وكان العقاد كاتب الوفد والمحرر الأول لجريدة البلاغ.

* * *

العقاد يتكلم

وعدت إلى العقاد أسأله عن هذه الواقعة فقال: إن صديقنا لم يفهم الوضع على حقيقته، فالواقع أن «مي» كانت تشفق من عنف حملاتي على الحكومة.. كانت تخشى أن تجرني هذه الحملات إلى السجن، وكثيرًا ما رجتني في أسلوب رحيم رقيق أن أخفف من غلوائي، وأنا أهاجم خصومي، حتى لا يلقوا بي في غياهب السجن، وتتعرض حياتي للخطر. وكنت أستغل هذه العاطفة في جعلها تبدأ بمصالحتي كلما وقع بيننا خصام.

ولقد حدثت بيننا جفوة، وأصررت على ألا أتصل بها، ولكني شعرت بحنين إليها، فلم أفكر في زيارتها أو كتابة رسالة لها، وكتبت مقالًا عنيفًا هاجمت فيه إسماعيل صدقي، وكان رئيسًا للوزارة.. وفي اليوم التالي جاءت «مي» إلى جريدة البلاغ، وقابلت المرحوم الأستاذ عبد القادر حمزة، وقالت له: ألم نتفق مع الأستاذ العقاد على أنه يحسن به في هذه الأيام الإقلاع عن هذا الأسلوب العنيف، حتى لا يعرض نفسه لما لا تحمد عقباه؟

وكانت غرفتي بجوار غرفة الأستاذ عبد القادر، ويفصل بين الغرفتين باب، وإذا هذا الباب ينفتح، وتطل منه «مي»، وخلفها الأستاذ عبد القادر يقول: هذا هو الأستاذ العقاد فقولي له ما تريدين.

وأصطنعت «مي» الهدوء، وتصنعت الإبتسام، وقالت لي: فيم هذا العنف؟ قلت لها: أو قلت لنفسي لا أذكر: وفيم هذا الجفاء؟

وأنحدرت من عيني «مي» الدموع، وحسبتها دموعي أنا لا دموع «مي»... فقد كان البكاء يخنقني.

***

رأيها في الديمقراطية

وسألت الأستاذ العقاد: هل كانت «مي» من أنصار إسماعيل صدقي؟

فقال: لقد كانت جريدتها «المحروسة» لسانًا من ألسنة الوفد.

– هل كانت تؤمن بالديمقراطية؟

فقال العقاد: لقد سبق أن أجبت عن مثل هذه الأسئلة، وأجوبتي كلها مسجلة في كتاب «حياة مي». وفي ذلك يقول العقاد:

أذكر أننا تناقشنا في الديمقراطية مرات، ولم نكن على وفاق في كل مرة.. وإن كان خلافنا على هذه المسألة أقرب إلى الفكاهة منه إلى الجد والتباين الصحيح في الآراء.

كنت أرشح نفسي للإنتخاب، فأشارت إلى حق المرأة في الإنتخاب للمجالس النيابية، فقلت لها إنني لو ملكت الأمر لما سمحت للمرأة بهذا الحق. قالت: ولم؟

فأجبتها: لأعتقادي أن المرأة بفطرتها غير ديمقراطية... فأنكرت ذلك أشد الإنكار.

وعدت أسألها: ترى لو أعطيت أنت حق الإنتخاب – وأنت «مي» التي لا يشبهها كثيرات من النساء – ثم ذهبت إلى الصندوق وذهب إليه مرشحان أحدهما يسير على قدميه والآخر يركب سيارة فخمة فهل تظنين أنك تفضلين المرشح السائر على قدميه. أو تفضلين المرشح صاحب السيارة الفخمة؟

فقالت: لعلي أفضل الأول إذا كان مستحقًا للتفضيل.

فقلت: لعلك تفضلين الآخر على أي حال.

فتظاهرت بالغضب، وألتفت إلى السيدة والدتها – وكانت تسمع حديثنا - وسألتها: ما رأيك يا سيدتي فيمن تؤثره كريمتك بالتفضيل. وأنت أعلم بها مني؟

فضحكت والدة «مي» وقالت: الحق أن كل إمرأة تفضل راكب السيارة على السائر على قدميه.

وهنا عادت «مي» تقول: ولم تظنون أن المرأة تخطئ في هذا التفضيل؟ ألا يمكن أن يرجع هذا إلى بداهة فيها توحي إليها أن تختار من تستقر على يديه الأمور ويبتعد بالأمم عن القلاقل والأزمات؟

وأنتهى الحديث بينها وبين العقاد بأن قال لها العقاد:

إن حكم السراة والنبلاء كان في أكثر العصور مثار القلاقل والثورات، وما قامت ثورة قط إلا على أثر حكم يطغى فيه هؤلاء النبلاء!

ويستطرد الأستاذ العقاد فيقول:

وفي مرة أخرى كان قيصر روسيا مقبوضًا عليه في إنتظار المحاكمة أو النفي إلى مكان بعيد. وكانت «مي» تشايع القيصر، وترثي له، وتنعي ذلك على خصومه، فكنت أقول لها: إنني لا أود الألم والشقاء لإنسان، ولكني كلما ذكرت القيصر منفيًا لم يسعني أن أنسى رجلًا عظيمًا مثل «دستويفسكي» وهو منفي في سيبيريا بأمر القيصر.. ولم يسعني أن أنسى ألوف العمال الذين قتلوا أمام قصر الشتاء بأيدى حراس القيصر.

* * *

هل كانت مجنونة؟

وسألت الأستاذ العقاد: هل أصيبت «مي» بالجنون حقًا؟

فقال: هذا سؤال صعب، فلم تكن «مي» مجنونة، ولكن أعصابها أنهارت نتيجة شعورها بالإضطهاد.

قلت: إن إجماع من عرفوها يكاد ينعقد على أن الكبت هو الذي حطمها ومزق أعصابها.

فقال: وهذا أيضًا صحيح.

وفي رأى العقاد أن «مي» كانت متدينة تؤمن بالبعث، وأنها ستقف بين يدي الله يومًا، ويحاسبها على آثامها، فكانت برغم شعورها بالحياة، وإحساسها العميق الصادق، وذكائها الوضاء، وروحها الشفافة، ورقتها وأنوثتها، تحرص على أن تمارس هذه الحياة بعفة وإتزان.

ولقد أصيبت «مي» بالإنهيار العصبي قبيل الحرب العالمية الأخيرة، وكانت قد سافرت إلى إيطاليا، وزارت البابا، وهناك جرى حديث بين الموجودين في غرفة الإنتظار عن إعادة الإمبراطورية الرومانية على يد موسوليني.. فقالت «مي» إن هذه الإمبراطورية هي التي صلبت المسيح، فلماذا تحرصون على عودتها؟

وفي مساء هذا اليوم قابلت أحد أصدقائها من رجال المفوضية أو السفارة الفرنسية في إيطاليا فقال لها: وزارة الداخلية الإيطالية تنظر إلى

وجودها في إيطاليا بعين الإستياء.. ونصحها ألا تفتح فمها بكلمة، فإن كل ما قالته أمس قد بلغ مسامع الدوتشي شخصيًا.

وأصفر وجه «مي»، وصممت على مغادرة الأراضي الإيطالية في اليوم التالي.

عادت إلى مصر وقد تملكها شعور جارف بأن الإيطاليين سيقتلونها، فأعتكفت في بيتها، وأمتنعت عن مقابلة أصدقائها، وكانت نتصور أنهم سيقتلونها بتحريض من الدوتشي ورجال الجالية الإيطالية في مصر. وبلغ من خوفها على حياتها أنها طردت الطاهي والسفرجي وفتاة المنزل. وأحضرت جهازًا لتحليل ما تتعاطاه من طعام.. كانت تحلل اللبن، وتغسل الفاكهة بالمحلول المطهر، وتغلي الماء قبل أن تشربه.

وفي يوم من الأيام ذهب إليها أنطون الجميل وخليل مطران وإحدى قريباتها، ولم تكد تفتح الباب وتراهم حتى أغلقته في وجوههم صائحة: أيها القتلة... ماذا تريدون؟

وبعد ذلك رأى أهلها أن يعرضوها بالقوة على «كونسلتو» من الأطباء الإخصائيين، وقرر الأطباء وجوب إقامتها في مستشفى للأمراض العصبية وأختاروا لها مستشفى العصفورية في لبنان.

وقامت ضجة كبيرة في مصر والبلاد العربية حول هذا القرار، وظلت الصحف تنشر أخبار «مي» في المستشفى. وكان بعض هذه الصحف ينفي عن أسرتها أنها تآمرت عليها، ويؤكد أن حالة مي تستدعي الراحة

والإستجمام في مستشفى للأمراض العصبية.. وكانت هناك صحف أخرى تتهم أسر مي بأنها تآمرت على عقلها.. لا بل على حياتها.

* * *

«مي» كما رأيتها

وقبيل سفر «مي» إلى لبنان أعلنت الجامعة الأمريكية أن «مي» ستلقى محاضرة في قاعة يورت التذكارية.

وقبل الموعد المحدد لإلقاء المحاضرة كانت القاعة قد أمتلأت على سعتها بالوافدين من جميع الطبقات.. جامعيين وأزهريين وعلماء وأدباء وصحفيين وسياسيين ورجال أعمال، شيوخًا وشبانًا وسيدات.

وعلى منضدة الخطابة جلس مدير الجامعة، وحوله أهل الفكر وأساطين الأدب، والأساتذة الجامعيون.. وتطلعنا إلى المائدة المعدة لجلوس «مي»... وقد أنبهرت أنفاسنا شوقًا إلى رؤيتها.

لم أكن قد رأيتها قبل هذه اللحظة.. ولم تكد تشرق فوق المنصة حتى أنطلقت الأيدي في حرارة وعنف.. وإذا دوى التصفيق يسد النوافذ والأبواب ويملأ الشوارع المحيطة بالجامعة.

ووقفت «مي»، وتهيأت للكلام، فساد الهدوء أرجاء القاعة.. كانت ترتدي ثوبًا أسود، يطل منه وجه أبيض مشرب بشيء قليل من الشحوب، ومن فوق الرأس شعرها اللامع المسدل في بساطة وإنسجام، وكان أشد سوادًا من ثوبها.

لم تكن قصيرة، ولم تكن طويلة.. كان قوامها نحيلًا يريد أن يمتلئ، سمينًا يريد أن ينحل.

وظلت «مي» تتكلم ساعتين عن الإنسانية والفكر والمحبة والسلام، وقد أستهوتنا جميعًا بنبراتها العذبة، وصوتها الهادئ الحلو العميق، وإشاراتها ونظراتها وحسن إستعمالها للفئات رأسها.. أستهوتنا بنضارتها الفاتنة، نضارة الفكر، ونضارة الوجه والقوام.

وعندما غادرت القاعة أصطدمت بشيخ معمم ينظر في منديله بكلتا عينيه، لم يكن ينظر في المنديل ولكن كان يمسح دموعه!

كان هذا الشيخ هو الأستاذ الأكبر الفيلسوف الأديب الفنان مصطفى عبد الرازق.

مؤامرة على سر امرأة

لطفي السيد يمنع نشر رسائل الكتاب المغرمين

١٠٠ من أهل الفكر يتغزلون في «ميّ»

منع لطفي السيد نشر الرسائل التي تلقتها «ميّ» من حوالي مائة كاتب أو مفكر وشاعر وفيلسوف.. بينهم مصريون ولبنانيون وإيطاليون وألمان وفرنسيون وإنجليز.

لقد قال لمن أعدوا الرسائل للنشر، هذه مؤامرة على سر إمرأة.

لماذا وقف أستاذنا لطفي السيد هذا الموقف! لماذا حجب عن التاريخ حقيقة فكرية عاطفية إنسانية عالمية تتمثل في مئات الرسائل بأقلام كتاب وشعراء وفلاسفة بمختلف اللغات ومختلف الأساليب!

هل خاف من إذاعة رسائله إلى «مي»؟ هل تضمنت هذه الرسائل من العواطف والمشاعر ما يحتمل أن يخف معه وقار الأستاذ الكبير والفيلسوف الجليل؟

وفي أوائل عام ١٩٤٢، أي بعد وفاة «مي» ببضعة أشهر، عكف أقارب «مي» على بحث أوراقها الخاصة، فوجدوا مئات الرسائل بمختلف اللغات، وكانت هذه الرسائل تضم عشر رسائل من كتاب أجانب، بينهم الفرنسي والإيطالي والألماني والإنجليزي والهندي.

أما بقية الرسائل فهي من أئمة الأدب والفكر ممن عرفوا «مي» وأتصلت بهم أتصالًا أدبيًا مباشرًا، أو أتصالًا غير مباشر عن طريق تبادل الرأي في الكتب الخاصة أو على صفحات الجرائد والمجلات الأدبية في مصر وسوريا والعراق ولبنان.

وتولى الأستاذان أنطون الجميل وخليل مطران فحص هذه الرسائل وتنسيقها، وإعدادها للنشر، فقد أنطوت على آراء وأفكار وعواطف، وكل أصحابها من أساطين القلم وأعلام الكتابة. كان في مقدمتهم أحمد لطفي السيد، وشبلي شميل، ومصطفى عبد الرازق، وخليل مطران، وجبران خليل جبران، وأنطون الجميل.. وولي الدين يكن، وشبلي الملاط، وبشارة الخوري، ويعقوب صروف، وطه حسين، وعباس محمود العقاد، وتوفيق الحكيم، ومصطفى صادق الرافعي.. إلخ، وأتصل أنطون الجميل وخليل مطران ببعض أهل الرأي، وتشاوروا معهم في أمر هذه الرسائل: أينشرونها كما هي أم يتصرفون بحذف الأشياء التي قد تثير من التساؤل والظن ما قد يحرج أصحاب الرسائل ولا يجعلهم فوق مستوى الشبهات؟

وأجمع الرأي على أن الأمانة تقتضي نشر الرسائل دون التصرف فيها بحذف أو تعديل. ولما سئل الأستاذ الدكتور طه حسين في ذلك قال: – هذه ثروة فكرية إنسانية لا ينبغي العبث بها، وشجع أنطون الجميل وخليل مطران على نشرها كاملة خدعة للحقيقة والتاريخ.

* * *

لطفي السيد يعارض

وقال أنطون الجميل لخليل مطران:

يحسن أن نسأل لطفي السيد في هذا الموضوع. وقال خليل مطران إن جواب لطفي السيد عن هذا السؤال معروف منذ الآن. إنه سيوافق على النشر من غير جدال! فلطفي السيد متقدم في تفكيره عن أهل جيله بمائة عام!

وقابلا لطفي السيد وعرضًا عليه الفكرة. ودهشا عندما قال لهما لطفي السيد إنه يعارض الفكرة، وعلى طريقته في الجدال سألهما: لماذا تنشران هذه الرسائل؟!

فقالا: ننشرها للحقيقة والتاريخ.

وقال لهما لطفي السيد: وهل أنتما موكلان بالحقيقة والتاريخ؟

وتولى خليل مطران مناقشة لطفي السيد فقال:

كل إنسان مكلف بأن يبحث عن الحقيقة، وأن يساهم في كتابة التاريخ.

فقال لطفي السيد: وإذا تعارضت الأخلاق الفاضلة مع الحقيقة فهل ننشر الحقيقة أو نرعى الأخلاق؟!

وقال خليل مطران: لكي نجيب عن هذا السؤال ينبغي أن نعرف هل

الحقيقة غاية أو هي وسيلة؟ إن كانت وسيلة فقد وجب ألا تتعارض مع الأخلاق، وإن كانت غاية فقد وجب أن نذيعها مهما تكن الظروف والملابسات!

قال لطفي السيد: إن الحقيقة غاية ووسيلة معًا، وهي في الوضعين لا ينبغي أن تكون عارية. بل يجب أن يكون لها ستر لا يتنافى مع الأخلاق الفاضلة.

وقال خليل مطران: إن الرسائل التي كتبها كبار الأدباء والمفكرين إلى مي ليس فيها شيء يمس العفة أو يخدش الحياء... إن فيها تعبيرًا عن حب غامض، أو صبابة مبهمة، فهل في هذا ما يتعارض مع العفة أو الخلق أو الحياء!

وقال لطفي السيد: لا يعنيني ما نمسسه هذه الرسائل ... لا يعنيني أن تنم عن حب غامض أو حب صريح، ولا أن تشي بصبابة مهمة أو صبابة واضحة، ولكن ما يعنيني هو أن هذه الرسائل سر أودعه أصحابها بين يدي «مي» فصار سرها هي، لا أحد سواها يملك إذاعته، حتى الذين كتبوا هذه الرسائل لا يملكون أن يذيعوها.. إن «مي» هي التي تستطيع أن تذيع السر إذا شاءت، وهي لم تشأ أن تذيعه، وليس أدل على ذلك من أنها لم تنشر الرسائل التي تلقتها، ثم إنها لم ترض بنشرها، فكيف تجرؤون على نشر الرسائل دون الرجوع إليها؟ فكيف ترجعون إليها وقد أصبحت لا تملك رأيًا ولا حجة ولا إرادة!

إن المنطق السليم يحتم أن تظل هذه الرسائل هي وجثمان «مي» سرًا في مقبرة واحدة!

وقال خليل مطران: يا سيدي هذه وثائق إنسانية فكرية.

فقال له لطفي السيد: يا سيدي هذه مؤامرة على سر إمرأة!

وعلى إثر هذه المناقشة أستقر رأي أنطون الجميل وخليل مطران على إرجاء نشر الرسائل إلى وقت آخر، وأسلما الرسائل لسيدة مجهولة من قريبات «مي» ومات أنطون الجميل وخليل مطران، ولا تزال رسائل مائة الكاتب والفكر والفيلسوف راقدة في مكان لا تعلمه إلا هذه السيدة المجهولة.. ومن يدري لعل السيدة قد وضعت الرسائل مع جثمان «مي»، أو لعلها أحرقتها!

* * *

سر المعارضة

ويبقى الآن سؤال:

أعارض أستاذنا لطفي السيد في نشر الرسائل التي تلقتها «مي» إيمانًا منه بوجوب الدفاع عن سر «مي»، أم أراد أيضًا أن يدافع عن سره هو؟ فإن بين هذه الرسائل كلمات وجهها لطفي السيد لمي، وفي هذه الكلمات كثير من نبض قلبه، وومض عاطفته، ونبرات مشاعره المشبوبة بالهوى والهيام! نعم! فقد أغرم لطفي السيد «بمي» وشغف بها حبًا.

وكان لطفي السيد يزور «مي» في أيام أخرى غير يوم الثلاثاء الذي أعدته لإستقبال الأدباء والفنانين وأهل الرأي.

كان يزورها وحده حينًا، ويزورها وفي صحبته الدكتور طه حسين حينًا، وكان ثلاثتهم يقضون الساعات في دراسات أدبية.

إن أستاذنا الكبير مثل أي فيلسوف ظل يبحث عن الحقيقة، ولم يجدها، ولقد ظل كذلك فترة من حياته يبحث عن حبه في قلب «مي»، وكان نصيبه من الحب مثل نصيبه من الحقيقة: بحث ولم يجد، وسعي ولم يصل!

وكانت «مي» تأنس إليه، وتثق في عقله وعاطفته، وعندما أصيبت بمرض الشعور بالإضطهاد قابلته مرة واحدة، ثم صرفته عن مقابلتها برفق ورحمة، على حين أغلقت بابها بعنف في وجوه الآخرين، وأعلنت أنها قررت العزلة والإبتعاد عن الناس.

* * *

طه حسين يصف عزلة «ميّ»

ويصف الدكتور طه حسين وحدة «مي» وعزلتها فيقول:

مضت مى، في طريقها إلى العزلة مضيًا رفيقًا، أو قل إنها تدرجت بطيئًا في أول الأمر، ولكنه سريع ملح آخر الأمر. أخذ ميلها إلى العزلة يظهر بعد أن فقدت أبويها، وبعد أن غمر الحزن نفسها المشرقة، ولكنها لم تقطع صلتها بالناس فجأة، وإنما قللت لقاءهم، وتجنبت ما يدعو إلى هذا اللقاء، وكنت بين الذين شرفتهم بصداقتها، فكنت ألقاها بين حين

وحين، فنستخلص لأنفسنا من الدهر وأحداثه ساعة أو ساعات نتحدث في الأدب والفلسفة، جادين حينًا ومازحين حينًا آخر، وكان سكرتيري ثالثنا في هذه الإجتماعات، وكان لنا رابع يحضرنا دائمًا، ولكنه لم يكن يفهم عنا.. ولعلنا كنا نفهم عنه كثيرًا، وهو ذلك الإبريق الذي كان ممتلئًا دائمًا من شراب الورد، والذي كنا نستسقيه غير مرة في هذا المجالس العذبة المرة.. ذلك أن «مي» كانت في طور الحزن اللاذع، والألم الممض، والتشاؤم الذي كان يسرع إليها كما كانت تسرع إليه، وطالما دافعت عنها هذا التشاؤم، وطالما حاولت أن أرد عنها هذا الحزن المهلك، ولكني لا أكاد أدنو إلى النجاح إلا ليردني الإخفاق فيما كنت أريد ردًا عنيفًا.

وكنت أريد أن أستنقذ «مي» من تشاؤم أبي العلاء كما كنت أريد أن أسستنقذها من الإسراف في التأثر برجال الدين، ولكن أبا العلاء ورجال الذين كانوا أقوى مني ومن غيري أيضًا!

وربما كان أظهر شيء لزم حياة «مي» في هذا الطور من أطوارها حبها لحياة القدماء وآثارهم، وإلى حبها في قرارة التاريخ، وحرصها على زيارة الآثار والوقوف أمامها صامتة مرة ومتحدثة إليها أو متحدثة عنها مرة أخرى. وقد ألححت عليها غير مرة في الخروج من دارها للرياضة، فكانت تتمنع وتأبى، ولكنها قالت لي ذات يوم إن كنت تريد أن أخرج فأصحبني إلى الهرم، فإني أحب أن أشهد هذه الآثار، وأن أقف موقف عبرة وإتعاظ أمام أبي الهول..

وقد صحبتها إلى هذه الآثار غير مرة، وكانت أحاديثها عن الروح

المصري القديم من أروع الأحاديث وأعمقها تأثيرًا في النفوس.

هذا ما سجله الدكتور طه حسين بقلمه عن عزلة «مي».

وقبيل وفاتها أتصل بها الدكتور طه في التليفون، وطلب أن يلقاها، فأعتذرت، قال لها سأزورك اليوم..

فقالت: لا..

قال: سأزورك غدًا..

قالت: لا..

قال: إذن متى أزورك؟

فقالت: لا تزرني أبدًا!

قال: لماذا يا سيدتي؟

قالت: هل تريد أن تعرف السبب؟

قال: نعم.

قالت: لقد قررت ألا أقابل أحدًا من الناس إلا رجال الدين... إذا أردت أن تراني فكن قسيسًا.

فقال: ماذا! أكون قسيسًا؟

قالت: كن قسيسًا.

فضحك الدكتور طه وقال:

سيدتي يعز علي ألا أراك، ويستحيل أن أكون قسيسًا!

الأمير الذي حاول خطف معبودة الأدباء

العاشقان: ولي الدين يكن

مصطفى عبد الرازق

حاول أحد أمراء المغرب خطف «مي» فحاصر بيتها بأعوانه.. وأقتحموا البيت يقودهم الأمير. ولكنهم لم يجدوا «مي»، ووجدوا قوة من رجال «البوليس».

كثيرون أحبوا «مي»، ولقد كان حب الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق «لمي» مثال العفة والحياء.. وكان الشاعر ولي الدين يكن يحبها بإشتهاء وجسارة. في أوائل عام ١٩٢٠ زار مصر أمير مغربي أسمه الأمير محمد الجزائري، ونزل في فندق دار السلام، بالحي الحسيني، وأتخذ له مجلسًا في أحد مقاهي خان الخليلي، وألتف حوله كثيرون من شباب المغرب الذين كانوا يطلبون العلم في الأزهر الشريف. وكان الأمير يبسط سلطانه عليهم، وقد جعل منهم حاشية تحف به كلما مشي أو جلس.

وضاق مجلس الأمير في قهوة خان الخليلي بأهل المغرب المقيمين في مصر من تجار ورجال دين وغيرهم.

وذاع عن الأمير أنه رب السيف والقلم، فهو فارس شجاع، وشاعر فحل، وحجة في فقه اللغة.

وكـان الأميـر ينفـق عـن سـعة لفتـت إليـه أنظـار الأدبـاء البائسـين، والشعراء المغمورين، فأحاطوا به، وأنهالوا عليه بعبارات الإطراء والمديح وأنهال عليهم بالقصائد والعطايا.

كانت القصائد رديئة، وكانت العطايا حسنة!

وأنتقل مجلس الأمير من خان الخليلي إلى حي الأزبكية، وهناك عرف كثيرًا من الشعراء والأدباء من أمثال خليل مطران وحافظ إبراهيم ومصطفى لطفي المنفلوطي ومصطفى صادق الرافعي ومحمد السباعي وعبد الرحمن البرقوقي وحسين شفيق المصرى.

وقد ذكر لي الشاعر خليل مطران أن الأمر كان إذ ذاك في الأربعين من عمره، يمتاز بعينين واسعتين، ولحية صغيرة مذببة، تبدأ من الصدغين بخطين رفيعين، وتنتهي في أسفل الذقن بكومة صغيرة من الشعر، تتدلى منها بضع شعيرات أشبه بنصف شارب مفتول.

وكان الأمير طويل القامة، ممتلئ الجسم، يرتدي البرنس المغربي، وقد طرح طرطوره وراء ظهره، ولم يره خليل مطران يلبس الطرطور في الصيف ولا في الشتاء.

وكانت قسمات وجهه مريحة: أنف طويل، وفم دقيق الشفتين، رقيق الشاربين، وجبهة عريضة، وشعر رأسه أسود لامع، وكانت بديهته حاضرة، وطريقته في المناقشة تدل على ما يمتاز به من ذكاء وفطنة.

ورأى خليل مطران أن يقدمه إلى «مي»، فصحبه إلى صالونها في

جلسة من جلسات الثلاثاء، ولم يكد يرى «مي» ويستمع إلى حديثها العذب، وصوتها الناعم الرقيق، حتى أستخفه الإعجاب، فأنشد بين يديها قصيدة وصف فيها جمالها وذكاءها.

وكان الخطاط نجيب هواويني حاضرًا في هذه الجلسة، فكتب القصيدة بخطه بالحبر الشيني.. وقد أقتضى ذلك أن يسمع الحاضرون قصيدة الأمير مرة أخرى، وقد أحتملوها على الرغم من ركاكتها وتفاهتها.

وظل الأمير يتردد على زيارة «مي» في يوم الثلاثاء، في غير أيام الثلاثاء، وكان يغمرها بالهدايا، ولم يبد من تصرفاته ما يبعث على الخوف منه أو إساءة الظن به.

وفي أحد الأيام كان خليل مطران وأنطون الجميل وإسماعيل صبري ونجيب هواويني وإحدى سيدات أسرة شكور يتناولون الشاي في دار «مي» ولاحظت «مي» على خادمها أنه مضطرب، فظنته مريضًا وسألته: ما بك يا حسن؟ فبكى الخادم، وغادر «الصالون» إلى المطبخ، وأخذ ينتحب بصوت مزعج.

وهرعت إليه «مي» ومن معها ليسعفوه فقال لهم: أنا لا أستحق الشفقة... أنا خنت العيش والملح!

وقص عليهم الخادم أن الأمير المغربي أعطاه عشرة جنيهات... وبكى.

قال خليل مطران للخادم، وهو يربت على كتفه: وماذا جرى؟ هذه هدية أمير! وهدايا الأمراء لا ترد!

قال الخادم: إن الأمير لم يعطني هدية... الأمير أعطاني رشوة... طلب مني أن أساعده على خطف الست الليلة. وأنا قبلت؟

وأخرج الخادم من جيبه الجنيهات العشرة، ورمى بها فوق الأرض. وقال «لمي»: سامحيني يا ستي...

وأستأذن في ترك خدمتها.

لكن مي تمسكت به، وأعطته الجنيهات العشرة، وقالت له: ستظل معي إلى أن أموت، وأعتبر هذه الجنيهات مكافأة مني لك!

قال حسن الخادم: لقد أتفق الأمير مع أعوانه على تطويق البيت في الساعة العاشرة من مساء اليوم. وطلب مني أن أكمن داخل الشقة دون علم الست حتى إذا فتحت له الباب أقتحم غرفة النوم، وأوثق الست بالحبال وكمم فها، ثم يأخذها فوق حصانه بحراسة أعوانه، ويعقد عليها قرانه بالقوة.

ودهش الحاضرون وهم يسمعون القصة، وهاج الأستاذ نجيب هواويني، وقال: يجب أن ننتظر هنا حتى إذا جاء الأمير عرف أن في العرين أسودًا!

وعلا صوت هواويني وهو يقول: أستعدوا بالحبال لكي نوثق الأمير ونعلقه في السقف مكان هذه النجفة.

وقد أستنكر الجميع حماسة هواويني، وقال خليل مطران: ليس هناك ما يدعو إلى أن يعرف الأمير أن في العرين أسودًا، ولكن يجب أن يعرف أن في مصر «بوليسًا».

وأسرع خليل مطران وأتصل بالمحافظة، وأبلغها النبأ، وفي الحال قامت قوة من رجال البوليس، ووصلت إلى بيت «مي» وكمنت فيه، وغادرت «مي» بينها، وذهبت مع صديقتها حيث باتتا معًا في دار الصديقة، وهي من أسرة شكور المعروفة.

وفي الساعة العاشرة مساء كانت الدار مطوقة بعشرة من الفتيان المغاربة، وقد تسلحوا بالخناجر والسيوف، ثم وصل الأمير، وكان شاهرًا سيفه، ودخل البيت وخلفه خمسة من هؤلاء الفتيان، وطرق الباب، ففتح له حسن الخادم، ودخل الأمير ومن معه، ومشوا على أطراف أصابعهم حتى يفاجئوا «مي» وهي نائمة، لشدها بالحبال تمهيدًا لخطفها.. وإذا هم يفاجأون برجال البوليس، وقد شهروا في وجوههم المسدسات، وطالبوهم برفع أيديهم إلى أعلى.

وألقى رجال البوليس القبض على الأمير ومن معه، وكانت قوة أخرى من رجال البوليس قد أختبأت في الشوارع المؤدية لبيت «مي»؛ وقد تولت هذه القوة القبض على الفتيان المغاربة الذين أنتظروا خارج البيت وساقوهم إلى المحافظة، ومعهم الحصان الأبيض: حصان الأمير الذي أعده ليحمل عليه «مي». وبعد لحظات لحق الأمير بحصانه في ساحة المحافظة!

وتولى المحافظ بنفسه التحقيق مع الأمير وأعوانه، وتدخلت السلطات الفرنسية في الأمر، فأفرج عن الأمير ومن معه، بعد أن تعهدوا بألا يقوموا بمثل هذه المحاولة. وقال الأمير إنه يأسف لما حدث، وإنه

لم يكن يريد «بمي» سوءًا، لقد أراد أن يتزوجها.

وبعد يومين عادت «مى» إلى بيتها، وأنقطع الأمير بطبيعة الحال عن زيارتها، ثم غادر مصر نهائيًا، ولم يعد إليها بعد ذلك.

* * *

العفة والحياء

كان مفروضًا عندما بدأت أكتب عن «مي» أني سأتكلم عمن أحبوها، ولقد ذكرت بعضهم، وأدخرت لنهاية الموضوع عاشقين: أحدهما الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق، والآخر الشاعر ولي الدين يكن.

أما مصطفى عبد الرازق فقد أحبها في عفة وحياء.

ويعتقد أنطون الجميل أن الشيخ مصطفى لم يعبر عن حبه بالكلمة المسموعة، وإنما عبر بالكلمة المكتوبة، عبر بهذه الرسائل الثلاث التي وجدت بين الرسائل التي تركتها «مي» بخط الشيخ مصطفى. إحداها كتبها من باريس والرسالتان الأخريان كتبهما من أبو جرج بمديرية المنيا.

قال لي أنطون الجميل إن الشيخ مصطفى بلغ في رسالته التي كتبها من باريس ذروة الرقة والذوق، وحرارة التعبير... كان يحدثها عما لقيه في باريس، وعن ذكرياته وتأملاته والمعالم التي زارها، وعن زيه الشرقي الذي تركه حينًا ليعود إليه بعد إنتهاء رحلته. وقال لها: «وإني أحب باريس...

إن فيها شبابي وأملي! ومع ذلك فأنا أتعجل العودة إلى القاهرة... يظهر أن في القاهرة ما هو أحب إلي من الشباب والأمل!».

* * *

العاشق الجسور

والعاشق الجسور هو ولي الدين يكن.. كان شاعرًا رقيقًا، وكاتبًا نابض التعبير، قوي الأسلوب، وقد أتجه في الشعر والنثر أتجاهًا جديدًا تحرر من العبارات التقليدية، وتمرد على طريقة القدامى. وقد وضح تحرره وتمرده في كتبه: «الصحائف السود» و«التجاريب» و«المعلوم والمجهول». وفي رسائله الأدبية، ومقالاته السياسية؛ ووضح تحرره وتمرده أيضًا في بعض أشعاره. كان خصمًا عنيدًا للسلطان عبد الحميد. ولقد نفاه السلطان إلى «سيواس»، وظل في المنفى حتى أعلن الدستور العثماني عام ١٩٠٨، فجاء إلى مصر، وعين موظفًا في الحكومة المصرية، ثم أختاره السلطان حسين في عام ١٩١٤ شاعرًا للحضرة السلطانية.

هذا الشاعر الحر المتمرد على الملوك أنتهي به المطاف بين السجن والمنفى والتشريد إلى أن يصبح شاعر السلطان!

ولقد أضطر إلى ذلك إضطرارًا فقد عانى الفاقة والفقر وشظف العيش، وأصيب بمرض الربو، ولم يكن هذا المرض دواء.

في هذا العام بالذات، عام ١٩١٤.

عرف ولى الدين «مي» وأحبها وأحبته، وأخذ يبثها غرامه شعرًا ونثرًا. وأخذت تبثه غرامها كلامًا شفويًا صريحًا، كلامًا مكتوبًا غير صريح.

وكان ولي الدين أنيقًا في زيه، جميل الصورة، خفيف الروح، وكان مهذبًا ورقيقًا، يجيد الحديث والإصغاء معًا. وكان حلو الإبتسامة يعرف كيف يجذب المرأة إليه بكل ما فيه من مزايا.

كان ولى الدين يكبر «مي» بحوالى خمسة عشر عامًا، وكان يلقاها مع الناس وفي المساء وحده أو مع آخر. وقال لى أنطون الجميل إن العفاف كان رابعهم.. أما الثالث فكان أنطون الجميل نفسه.

وكان أنطون الجميل يعتقد أن علاقة ولي الدين «بمي» هي علاقة شاعر بكاتبة، وأن ما كانت تبديه «مي» من عطف على ولي الدين مبعثه الحقيقي الشفقة عليه... فقد كان تعيسًا مريضًا.

وكان ولي الدين في كلماته وعواطفه مصريًا صميمًا على الرغم من أنه ولد في الآستانة، وحضر إلى مصر طفلًا، وتعلم في المدارس الفرنسية وأتم تعليمه في فرنسا، وعاش في تركيا وتوظف في السراي.

كتب ولي الدين إلى صديقه أنطون الجميل يصف مرضه، وذهب الجميل إلى «صالون مي» وتلا ما كتبه ولي الدين بصوت مسموع، وإذا «مي» تنتفض من الألم، وتنشج بالبكاء، وكان ذلك في عام ١٩١٨، وهذه هي الكلمات التي أنتفضت لها «مي» وأنتحبت باكية:

«أنا في يأس شديد من زوال هذا المرض الذي عجز الطب عن دفعه، وهو المسمى «الربو».. إذا دجا الليل تكاثرت مخاوفي فلا يغمض جفناي فرقًا؛ لأني لا أغفى إغفاءة إلا وأنتبه صارخًا مذعورًا. إذ تنقطع أنفاسي، ويشتد أضطراب قلبي، وتبرد يداي ورجلاي، فأختلج في مكاني وأتلوى. تلوى الأفعى ألقيت في النار.. أريد تنفسًا أستعيد به ما يوشك أن يذهب عني من الحياة فلا أجده، حتى إذا بللني العرق، وأنهكني التعب، عاودتني أنفاسي شيئًا فشيئًا، وذهبت النوبة على أن تعود بعد ساعة أو ساعتين.. ومصير مثل هذا المرض معلوم، وهو مذكور في كتب الطب، لم يختلف فيه طبيبان.

لا أدري هل من الموت وما أنتظر من أهواله يزداد جزعي؟ وما تطلع شمس يوم إلا زادتني قربًا من قبري!

والهفي على آمال تحولت آلامًا!.. واحسرتي على أيام عمر ما ضحكت لي مرة إلا جعلت دموعي لها ثمنًا»!

* * *

أيام الغزل

وخفت وطأة المرض على ولي الدين، وأستطاع أن يستأنف عمله في السراي، ويستأنف زيارته «لمي» وكان يستعيض عن الزيارة بالكتابة إليها في موضوعات أدبية مشوبة بالغزل.. أو موضوعات غزلية مشوبة بالأدب.

يقول لها في إحدى رسائله: «إنك بلبل الشعر الصادح في روض الحياة»، ويقول لها وقد أنقطع عن زيارتها بعد جفوة لم تدم غير بضعة أيام:

تمسين ناسية، وأمسى ذاكرًا عجبًا أشاعرة تهاجر شاعرًا

فهل الملائك كالحسان هواجرًا إن الملائك لا يكن هواجرًا

إن كنت لا أسعى لدارك زائرًا فلكم سعي فكري لدارك زائرًا

وقال يخاطب طيفها في المنام:

عيناك عيناها كذا كانتا والوجه ذاك الوجه لم يبدل

أعرف لحظتها برغم النوى فكم أصابا قبل ذا مقتلي

يظل قلبي خافقًا هكذا كأنه ألقى في مرجل

إن كان هذا ما دعوه الهوى فمثل هذا الليل لا ينجلي

يا مهجتي يا جلدي يا صبا إن لم أمت وجدًا فلا بد لي!

ويقول لها:

أعلمت الهوى الذي أخفيه؟ أي سر يا «مي» لم تعلميه؟

وقد رأى جامع الديوان أن يحذف عبارة يا «مي» ويضع مكانها هذه العبارة «في القلب».

فصار البيت في الديوان هكذا:

أعلمت الهوى الذي أخفيه؟ أي سر في القلب لم تعلميه؟

وجامع الديوان هو يوسف حمدي يكن شقيق ولى الدين.. وكانت «مي» تعاني في حياتها آلامًا نفسية شديدة، وشكت لولي الدين مما تلقاه:

مظلومة تشكو إلى مظلوم هذي همومك هل عرفت همومي!

ما في الزمان ولا بنيه كرامة فيصان قدر كريمة وكريم

وعاود المرض ولي الدين، فأعتكف في بيته بحلوان، وزارته «ميّ»، وكان معها خليل مطران، فقال وليّ الدين قصيدته المشهورة:

تبدّت مع الصبح لما تبدي فأهدت إِلَى السلام وأهدى

تقابل في الأفق خداهما فحييت خدًّا وقبلت خدًّا

لقد بدل الله بالبعد قربًا فلا بدل الله بالقرب بُعدًا

تعالي فجسّي بكفك كبدي إذا كان أبقى لي الهجر كبدًا

وكانت هذه هي زيارة «ميّ» الأولى والأخيرة للشاعر ولي الدين.

واشتد المرض علي ولي الدين، وكانت «ميّ» تتتبع أخباره في حزن ولهفة، وكان شقيقه يوسف حمدي يكن يذهب إليه في حلوان كل يوم، ويعود إلى القاهرة حيث يقابل «ميّ» ويشرح لها حال أخيه شرحًا دقيقًا، فكانت تسأله عن درجة حرارته في الصباح، ودرجة حرارته في المساء، وكيف حال السعال؟ وما هو رأي الطبيب.. وكان ذلك كله على مسمع من زوارها. وكانوا جميعًا يحترمون عاطفتها، ويجاملونها بإبداء الحزن والأسى على ولي الدين، متمنين له الشفاء.

* * *

نشرات منظومة

وفي إحدى الليالي جاء يوسف حمدي يكن من حلوان، وكان مكفهر الوجه، وأعطى «ميّ» ورقة بخط أخيه ولي الدين، ولم تستطع أن تتم تلاوة الورقة، وكانت تحتوي على هذه الأبيات:

عمر الشباب لقد مضيت محببًا وتركت لي عمرًا سواك بغيضًا

أمحي وتثبتني الشقاوة كارهًا مثل الكتاب يكابد التبييضا

عودت أمراضي وطول تألمي حتى كأني قد ولدت مريضًا!

وبعد أسبوع جاء يوسف حمدي يكن ومعه ورقة أخرى بخط ولي الدين، وكانت تتضمن بيتين من الشعر، فقال خليل مطران هذه نشرات صحية منظومة! ولم تضحك «ميّ» لمداعبة مطران، وأخذت الورقة

وقرأت بصوت مخنوق بالدمع هذين البيتين:

مـــت يـــا ولـــي الـــدين مـــت   مـــــا ثـــــم مـــــن يبكيكـــــا

ودع حياتـــــــــــك هـــــــــــذه   مـــــا ذقتـــــــه يكفيكـــــا

وقبيل وفاة ولي الدين بأيام أرسل إلى «ميّ» هذين البيتين:

يـا جسـدًا قـد ذاب حتـى أمحـى   إلا قلـــــيلًا عالقًـــــا بالشـــــقاء

أعانـــــك الله بصـــــبر علـــــى   مـا سـتعاني مـن قليـل البقـاء!

وفي يوم الأحد ٦ مارس من عام ١٩٢١ إنطفأ اللهب في قلب ولي الدين ليشب في قلب «ميّ» حريقًا.. فقد بكته بعنف، وحزنت عليه وكان خياله يطاردها في النوم واليقظة، ولبست عليه السواد عامين، وكان كلما جرى ذكره تندت عيناها بالدموع.

وهكذا كانت «ميّ» أسطورة في قلوب العشاق وخيال الشعراء وكانت أيضًا حقيقة كبيرة.

ولقد عرفت الأسطورة وبقي أن تعرف الحقيقة.

* * *

الأسطورة.. والحقيقة

كانت «ميّ» تغنى للطفي السيد وطه حسين. والتابعي والمازني يسخران من أسلوبها.

وقف الأستاذ محمد التابعي والأستاذ إبراهيم المازني من الآنسة «ميّ» موقف السخرية والتهكم والتجاهل لمكانها الأدبي المرموق.

كانت «ميّ» في خيال الناس أسطورة، وكانت في عالم الأدب العربي حقيقة كبيرة. كانت صاحبة أسلوب ومذهب، وكان «صالونها» الأدبي ثاني «صالون» أدبي لسيدة في مصر. أما «الصالون» الأول فكان للأميرة نازلي فاضل. وكانت شيئًا آخر غير عائشة التيمورية وباحثة البادية ملك حفني ناصف.

إن «صالونها» في العصر الحديث يشبه صالون السيدة سكينة بنت الحسين في صدر الإسلام.

كانت السيدة سكينة تنقد الشعر وتولع بالغناء.. وكانت «ميّ» تجتمع بالشعراء والكتاب، وكانت تغني.

إن «ميّ» التي ألهبت قلوب المفكرين والشعراء والكتاب بالشوق واللهفة لم تكن مجرد فتاة تنبض أنوثة وتشع ذكاء.. ولكنها كانت مفكرة ممتازة وصاحبة أسلوب في التعبير وكانت ثقافتها متنوعة شاملة. درست الآداب والتاريخ والفنون والفلسفة وكثيرًا من العلوم، وأتقنت عدة لغات أجنبية، فقد ألفت بالفرنسية، وكتبت مقالات بالإنجليزية، وراسلت كثيرين باللغتين الألمانية والإيطالية. كانت أديبة كبيرة، بل كانت أديبًا كبيرًا..

وقد إحتفى بها المفكرون المعاصرون لها، وقدروا أثارها، وكان هؤلاء المفكرون يمثلون إتجاهات كثيرة تجعل فهمهم للحياة والأدب

شديد الإختلاف والتناقض، ولكنهم لم يختلفوا في فهمهم «لميّ» وإعجابهم بمكانتها الأدبية، كان بينهم المؤمنون والملحدون، والأذكياء وأنصاف الأذكياء، والملتفتون إلى الماضي والمتجهون إلى المستقبل، والمجددون والمقلدون وأصحاب الثقافة الأجنبية وحدها وأصحاب الثقافة العربية وحدها، والجامعون بين أكثر من ثقافة.

وهم جميعًا يهاجم بعضهم بعضًا بعنف، وكانت معاركهم القلمية تتناول الأعراض والعقائد والسلوك الشخصي، وقد إستعملوا فيها عبارات تقع تحت طائلة القانون، وتراشقوا بتعبيرات مقذعة وحشية.. تعبيرات لها فحيح وعواء ونباح، تعبيرات ذات أظافر وأنياب.

فإذا ما تكلموا عن «ميّ» نسوا معاركهم وخلافاتهم وأجمعوا على تقديرها.

* * *

التابعي

كلهم كانوا كذلك إلا إثنين: محمد التابعي وإبراهيم المازني. كان التابعي يسخر من «ميّ». وقد عبر عن هذه السخرية بمقالات قصيرة نشرها في مجلة «روز اليوسف» بدون توقيع؛ لأنه كان لا يزال موظفًا في مجلس النواب، ولم يكن يوقع أي مقال يكتبه. وقد هزأ في هذه المقالات بأسلوب «ميّ» وطريقتها في التعبير، وكان يسمى ما تكتبه «الشعر المنثور» أو «النثر المشعور»!

وقد كتب عدة مقطوعات حاكى بها أسلوبها مبالغة في السخرية منها، وسألت التابعي عن سر حملته على «ميّ» فقال:

– إنها لم تكن حملة، ولكن كانت مداعبة أو «شقاوة» !

فقد كنت آخذ عليها أنها عندما تكتب تستعرض معلوماتها العامة. فما من مرة كتبت أو خطبت إلا إستشهدت بمثل لاتيني، أو حكمة صينية، أو بيت من الشعر العربي، أو كلمة مأثورة لشكسبير الإنجليزي أو دانتي الإيطالي، أو لامرتين الفرنسي، أو جوته الألماني. وأنا لا أحب الكتّاب الذين يستعرضون معلوماتهم.

وسألته عما إذا كان قد زار «صالونها» الأدبي؟ فضحك وقال:

– كيف يمكن ذلك وقد كنت شابًا صغيرًا؟ ثم قال إنه لم يرها في حياته إلا مرة واحدة.

ولما سألته: متى رآها

قال: منذ عشر سنين.

قلت له: ولكن «ميّ» ماتت منذ أربعة عشر عامًا.

فقال: هل ما أقوله لك للنشر أو للحقيقة والتاريخ؟

قلت: للحقيقة والتاريخ.

فقال: لقد رأيت «ميّ» لأول مرة وآخر مرة في «كازينو سان إستفانو» بالإسكندرية عام ١٩٢٨، وكانت واقفة في بهو الكازينو مع أستاذنا أحمد لطفي السيد.

* * *

والمازني

أما المرحوم إبراهيم عبد القادر المازني فلم يتناول «ميّ» بالنقد والهجوم كتابة، وكل ما هنالك أنه كان يغفل أمرها، ولا يعترف بوجودها، وكان يصارح بعض أصدقائه وتلامذته بذلك.

ولم تكن عنده رغبة في لقائها، أو التعرف بها، على خلاف كل رجال الفكر والقلم المعاصرين له.

وفي يوم ما تلقى منها دعوة إلى زيارتها في «صالونها» الأدبي.

ولندع المازني يكمل القصة بنفسه، وقد نقلنا كلامه من كتاب «حياة ميّ».

قال: تلقيت منها ذات يوم بطاقة مكتوبة بخط جميل تدعوني فيها إلى زيارتها في يوم ثلاثاء. أما أي ثلاثاء ومن أي شهر أو عام فعلمه عند الله. وقد إستغربت يومئذ حسن الخط، وتوهمت أنها إستكتبت أحد الخطاطين، وعددت هذا من التكلف الذي لا داعي له. ولما كنت أمقت التكلف، وأنفر من الإجتماعات الكبيرة، فقد زهدت في الزيارة التي دعيت إليها، ووطنت نفسي على التخلف.

***

كنت سيئ الأدب

ومن حسن الحظ أني نسيت أن أبعث إليها برد أو إعتذار. وأحسب أن الأستاذ العقاد هو الذي هوّن عَلَي الأمر، وشجعني على قبول الدعوة، وعرفني أن هذا خطها لا خط خطاط، فلم أجد مناصًا بعد ذلك من قبول الدعوة الكريمة، وأقول الكريمة لأني كنت سيئ الأدب معها أو قليل العقل، ذلك أنها كانت أهدت إِلَى كتابيها «الصحائف» و«ظلمات وأشعة»، فألقيت نفسي نافرًا غير مستعد لحسن الرأي فيهما. ولعل كلمة «الظلمات» هي التي ساء وقعها في نفسي، فكتبت بضعة فصول في الأخبار، ونشرت بعد ذلك في كتاب «حصاد الهشيم» عن «الواجب»، و«الكتب والخلود»، و«الطبيعة عند القدماء والمحدثين»، ولم أتناول كتابي «ميّ» بأي بحث، وإنما كتبت ما كتبت لمناسبة إهدائهما إِلَى، وكانت هذه قلة ذوق على التحقيق، وكان إهمال إبداء الرأي لا يخلو من معنى الإستخفاف، فبأي وجه ألقاها وقد صنعت ذلك؟ ولكنها غفرت ذنبي، وأغضت عن قلة ذوقي، وعسى أن تكون قد حملت ذلك مني على محمل الغرور أو الطيش أو الحماقة التي يركب الشاب بها الحياة.. ولولا أنها صفحت عني لما دعتني، فمن الإقرار بالذنب والإعتراف بالخطأ، ومما ينطوي على معنى الإعتذار أن ألبي الدعوة. وحدثتني نفسي، وقد دارت فيها هذه المعاني، أنها لابد أن تكون مرهفة الإحساس، عظيمة مروءة القلب، رحيبة الأفق، وأنها على كل حال لابد أن تكون ظريفة، فتوكلت على الله وذهبت.

* * *

«صالون» ميّ كما يصفه المازني

ويمضي الأستاذ المازني –رحمه الله– فيصف «صالون ميّ» كما دخله لأول مرة قال:

وأعترف أني دخلت متهيبًا، مستحييًا، ووقفت على الباب مترددًا.. تهيبت لقاءها، وإستحييت أن أجد نفسي بين زوارها الذين قيل لي إنهم من كل طبقة، وترددت لأني لم أعتد هذه المجالس، ولأني أعرف من نفسي النفور من هذه الطبقات التي تعد نفسها ممتازة أو عالية، أو لا أدري لماذا أيضًا.

على أني دخلت بسلام، فإستقبلتني هاشة باشة شاكرة، فتعجبت، ولا أظن أني نطقت بحرف.

وقعدت حيث أومات، وكان هناك الأساتذة لطفي السيد، وخليل مطران، ومصطفى عبد الرازق، والسيد رشيد رضا، وإبن أخيه محيي الدين رضا، والعقاد وآخرون كثيرون إمتلأت بهم حجرات الدار.

وكانت المرحومة أمها تساعدها على الترحيب بالضيوف وإكرامهم، ولا أذكر أنه دار بيني وبينها حديث.. وكانت كلها مرت بي تلقي كلمة تحية، أو تكتفي بالإبتسام، وأنا كالأخرس... لا أنبس ببنت شفة!

* * *

خطب في «الصالون»

ويستطرد الأستاذ المازني فيقول:

وإذا بهذا الجمع الحاشد يخرج من الحجرات إلى الردهة الفسيحة، وإذا «ميّ» تقف لتخطب، فإرتعت ووجمت، فما أكره شيئًا كراهتي للخطب. وقالت شيئًا سمعت منه إسم «ماكس نوردد»، فإنطلق لطفي السيد يصفق.. فتعجبت لهذا الرجل، ولما عددته يومئذ إسرافًا في التلطف والمجاملة.

ولم أصغ لشيء مما قالت، ورأيت كثيرين ينهضون شاكرين مثنين، وصار هذا يدعو ذاك لإلقاء كلمة، فخفت، وزادني رعبًا أن السيد محيي الدين رضا همس في أذني أنه سيدعوني إلى الكلام.. فقلت والله لئن فعل لأقولن ما يسوء، فما أنا من رجال «الصالونات»، ولست أحسن هذا الضرب من الكلام، وما جئنا هنا ليثني بعضنا على بعض على أني لا أعرف لماذا جئنا أو دعينا.

* * *

من أبناء الشعب

ويمضي المازني في تصويره للصالون فيقول:

وإتفق في هذه اللحظة أن مرت بي الآنسة «ميّ»، فحاولت أن أنهض لها، فنهتني عن ذلك، وعرفتني أنه غير لازم، فوجدت لساني وقلت لها معتذرًا عن جهلي: إني من عامة أبناء الشعب، ولست من رواد «الصالونات» فأرجو أن تتجاوزي عن أغلاطي!

فقالت بإبتسامة وديعة: لا تقل هذا الكلام!

قلت: ألا تحبين أن تعرفيني على حقيقتي!

قالت: طبعًا.

قلت: ثقي إذن أني من أبناء الشعب، ولا أستطيع ولا أحب أن أرتقي عن هذه المنزلة.

فتبسمت وهزت رأسها.. ولا أدري إلى هذه الساعة أكان هذا منها أسفًا.. أم كان رفضًا للتصديق؟ وإنما الذي أدريه أني كنت جادًا جدًّا..

وبدأ الناس ينصرفون، وهم الأستاذ العقاد وهممت بالخروج، فأخرتنا وإستبقتنا –أستغفر الله– بل إستبقت أيضًا الأستاذ خليل مطران وجلسنا نحن الأربعة في حجرة الإستقبال الكبرى، وكان نصيبي الإصغاء مطرقًا حينًا، وناظرًا إليها حينًا آخر، ومعجبًا بها في الحالتين

وإن كنت قد شعرت بأني غير فاهم شيئًا مما يقال لفرط إشتغالي بما في نفسي.

***

رأي غامض

وهكذا رسم المازني صورة حية نابضة «لصالون» «ميّ»، وشعوره بهذا «الصالون». ولكنه لم يبد رأيه بصراحة في «ميّ».. وعمد إلى الهرب. من إبداء هذا الرأي.

وقد سئل عن أي كتب «ميّ» سيكتب له الخلود؟ فتهرب أيضا وقال:

– إني أؤمن بالفناء في الدنيا ولا أؤمن بالخلود لشيء فيها.

نعم ربما بقيت الكتب محفوظة في دورها.. فيكون البقاء معناه الدفن!

***

الاستغناء عن اللغة

وأوغل في الهرب من الإجابة إلى حد أن قال:

– أنا أعتقد أيضًا أن العالم سيستغني عن الألفاظ واللغات في

المستقبل البعيد كأداة للفهم والإفهام.. وسيستطيع

بعد مرور أحقاب كافية أن يتخاطب ويتراسل ويتفاهم بموجات يرسلها.. كما يرسل الآن موجات لاسلكية يذيعها في أرجاء الأرض، فيسمعها القاصي والداني وحينئذ يستغني العالم عن الأدب المكتوب كله.

وسئل عن أسلوبها فقال: «إنه سليم نقي».

ولكنه لم يقف عند هذا الحد بل قال في سخرية: لقد أشرت إلى قلة عقلي لما تلقيت كتابيها.. ذلك أني أكره الأسلوب العاطفي أو الوجداني.. وقد نسيت وأنا أقرأ كتابيها أن الكاتبة إمرأة، وأنها لا تكون مخلصة لنفسها وطبيعتها إلا إذا كتبت بروح المرأة، وأنها بغير ذلك تكون متكلفة ولا قيمة لها. وقد كانت «ميّ» إمرأة صادقة الأنوثة غير طائشتها، ومخلصة لجنسها أعظم إخلاص.. وأحسب أني قد تبينت كيف كنت قليل العقل.

ورفض أن يجيب عن سؤال عن مكان «ميّ» بين كتاب العربية، وقال: «أين في العربية من النساء من يضارعها حتى يكون هناك محل للمفاضلة ؟!».

وكان السؤال عن مكان ميّ بين الكتاب، وليس بين النساء.

وهكذا تخلف المازني بلباقة وحياء عن موكب المعجبين بميّ.

* * *

أسلوبها

كان أسلوب «ميّ» مشرقًا أخاذًا كان لتعبيراتها رنين عذب، وجرس خلاب. كانت تفكر في حماسة؛ وهذا غلبت على كتابتها روح الخطيب المفكر، لا الخطيب المرتجل!

وإليك نموذجًا من هذا الأسلوب:

قالت تخاطب الشرق وتستنهضه:

أيها الشرق

يا شرقي الكبير الرهيب الرؤوف..

يا شرق الطرب والحميا والنخوة والشدة العاصفة كريح السموم!

إنك لتتجمع تحت نظري كلوحة مصورة، فأرى منك الفقر والجهل والإضطراب والإحتدام والانفعال، ليس فيك فيض الثروة ومعجزات الحضارة. ربوعك خالية مما لدى الأقوياء من صروح ومعاهد ومصارف ومعامل. ربوعك خالية من المتاحف والخزائن والودائع المجلوبة من قصي الأنحاء. إنك جاهل فقير مفكك الأوصال، وبرغم ذلك فأملي بك عظيم كالحياة والحرية. ها قد جاء وقت النهوض، فإلى النهوض برغم النوائب والمثبطات... إلى النهوض.. حولك الأقوياء يكافحون ويغنمون، وهم برغم ذلك يئنون في الظلام...

هناك فجر منتظر لم يلح بعد!

أنت برج الفجر.. أيها الشرق أنت مزجي الأشعة... فقم وأعمل وأرقب من أي أنحائك يلوح مشعل الضياء!

* * *

آراء أهل القلم

وقد سمى المازني هذا الأسلوب عاطفيًا.. وسماه التابعي شعرًا منثورًا أو نثرًا مشعورًا...

وقال مصطفى عبد الرازق: إن للآداب الإفرنجية أثرًا ظاهرًا في أسلوب «ميّ» وفي طريقة معالجتها لموضوعاتها. وفي رأيه أن هذا الأسلوب لا يزال حيًا يزاحم في ميدان التنافس بين الأساليب الجديدة التي يلتمس كل واحد منها النصر، ولا أعلم لأيها يكون النصر، من يدري؟ فقد يكون للحرب القائمة ونتيجتها أثر حتى في أساليب التفاهم بين الناس. ويرى الدكتور طه حسين أن الأدب العربي قد إنتفع بحياة «ميّ».. ويقول الأستاذ العقاد إن «ميّ» كاتبة معتدلة بعيدة عن التطوح في الأثيريات والخيالاته، فهي أقرب إلى المحسوس الداني منها إلى الخيال البعيد.

ويقول أنطون الجميل: كانت «ميّ» على إطلاع واسع الحدود، فسيح المعالم، وكان شخصيتها تشب مستقلة من خلال أفكارها وكتاباتها فما قلدت كاتبًا!

ويقول الدكتور منصور فهمي: «إنني أعد الطريقة التي جرت عليها «ميّ» في كتابتها مما يصح أن يكون مثلًا للكتابة الراقية، ولم تكتف «ميّ» بالفكرة المتمكنة والمعنى الدقيق، بل كانت تعني فوق ذلك بإختيار الألفاظ الملائمة والعبارات الموائمة.

ويقول خليل مطران: إن شاعرية «ميّ» في اللغة العربية كتبت بطريق النثر الفني، وهذا هو ما إختصت به في أسلوب كتابتها، فتكتب مصورة وملحنة ومقسمة للكلام على تقاسيم شعر خفي تتحرك به النفس.

* * *

«ميّ» والتيمورية وباحثة البادية

لقد ظهرت «ميّ» في مصر بعد ظهور أديبتين هما عائشة التيمورية عمة الأستاذ محمود تيمور– وكانت شاعرة على طريقة شعراء ذلك العصر، ولها ديوان مطبوع.

أما الأخرى فهي باحثة البادية ملك حفني ناصف كريمة القاضي الأديب حفني ناصف، وقرينة السيد عبد الستار الباسل، وكانت تذيع المقالات، وتثير المناقشات على صفحات الجرائد. لكن عائشة وملك كلتاهما كانت تتحدث من وراء حجاب، ولم تظهر في المجتمعات أو تخطب في حفلة، ولا وجه للمقارنة بينهما وبين «ميّ» فإختلاف الظروف والبيئة والثقافة والدين شق الطريق أمام «ميّ» وسد المنافذ في وجهيّ عائشة وملك.

* * *

«الصالون» الثاني

ولم يكن «صالون» «ميّ» أول «صالون» أدبي لسيدة في مصر، فقد سبقتها إلى ذلك الأميرة نازلي فاضل. لكن ما أبعد الفرق بين «الصالونين»! كان «صالون» «ميّ» للمفكرين من جميع الطبقات.. وكان «صالونًا» أدبيًا عربيًا. وكان «صالون» نازلي للخاصة، وكان «صالونًا» إجتماعيًا فرنسيًا.

يقول الدكتور طه حسين: كانت الأميرة نازلي فاضل تستقبل في «صالونها» بعابدين كبار المصريين والأوربيين، وكانت الأحاديث في هذا الصالون تتصل غالبًا بالمسائل السياسية ومسائل الإصلاح الإجتماعي والديني التي كان الناس يشغلون بها في ذلك الوقت، وكان سعد زغلول، وقاسم أمين، ومحمد عبده، وحسن عبد الرازق، وحسن عاصم، يشهدون هذه الإجتماعات، ويشاركون فيما كان يدور فيها من الأحاديث. وكانت آثار ذلك تظهر في الحياة العامة لهؤلاء الناس، ولكن «صالون» الأميرة نازلي كان أرستقراطيًا إن صح أن الأرستقراطية توجد في مصر. وهو على كل حال كان ضيقًا مغلقًا لا يصل إليه إلا الذين إرتفعت بهم حياتهم الإجتماعية إلى مقام ممتاز، ولم تكن الحياة الأدبية الخالصة تشغل الذين كانوا يختلفون إلى هذا «الصالون».

فأما «صالون» «ميّ» فقد كان ديمقراطيًا، أو قل إنه كان مفتوحًا لا يرد عنه الذين لم يبلغوا المقام الممتاز في الحياة المصرية، وربما كانوا

يدعون إليه، وربما كانوا يستدرجون إليه إستدراجًا، فيلقون الناس ويتعرفون إلى أصحاب المنزلة الممتازة، ويكون لهذا أثره في تثقيفهم وتنمية عقولهم وترقيق أذواقهم.

* * *

«صالون» سكينة بنت الحسين

لم تكن «ميّ» إذن مجرد أنثى ذكية، لكنها كانت كاتبة مفكرة، وقد خلفت من الآثار الأدبية ما يكفل لها في تاريخ الأدب العربي عمرًا طويلًا.

ولقد كان «لصالونها» الأدبي من الأثر في هذا العصر الحديث مثل ما كان «لصالون» السيدة سكينة بنت الحسين رضي الله عنهما من أثر في توجيه الذوق الأدبي. وكما لفتت سكينة أنظار الناس وإعجابهم، وجعلت النساء يقلدنها في تسريحة شعرها، لفتت «ميّ» أنظار أبناء جيلها وكان كثير من الفتيات يحاولن تقليدها في إرسال شعرها وراء ظهرها بعناية توحي بعدم العناية.

وقد ذكرت كتب الأدب العربي أن السيدة سكينة بنت الحسين كانت عفيفة، تجالس الآجلة من قريش، ويجتمع إليها الشعراء، وكانت أحسن النساء شعرًا، وكانت تصفف شعرها تصفيفًا جميلًا، وعرف هذا التصفيف أو التسريحة بإسم «الجمة السكينية»، وكان عمر بن عبد

العزيز إذا وجد رجلًا يصفف شعره على طريقة سكينة جَلَده وحَلَق شعره.

وكانت سكينة تجمع في منزلها أمراء الغناء، وتدعو الناس إلى الإستماع، وتقدم إليهم الطعام، وتجيز المغنين والشعراء.

وقد كان لها ولع بالغناء، وكانت تنقد الألحان والأشعار، وتشرح أسباب نقدها، ولعلها أول من فعل ذلك، فقد كان النقاد قبلها يكتفون بقولهم: هذا أشعر خلق الله، أو ما أجمل هذا!! وما أقبح ذلك! ولكن سكينة كانت تنقد وتبين مواضع النقد. سمعت من راوية جرير قول جرير:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعي بسلام

فقالت له: وأي ساعة أحلى من الطروق؟ قبح الله صاحبك، وقبح شعره!

ويروي صاحب الأغاني رواية أخرى مؤداها أن الشعراء إجتمعوا عندها، فأرسلت إليهم جاريتها، وكانت تسأل كلًا منهم: ألست القائل كذا: خذ هذا الألف.

وأن الجارية دخلت على مولاتها وعادت إلى الشعراء وقالت أيكم جرير فقال: هأنذا.. قالت أنت القائل:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعي بسلام

قال: نعم.

قالت: أولًا أخذت بيدها، وقلت لها ما يقال لمثلها؟ أنت عفيف وفيك ضعف.. خذ هذه الألف والحق بأهلك!

والحديث عن سكينة وطريقتها في النقد يطول، وقد أردنا بالكلام عن سكينة أن نقارن بين «صالونها» الذي كان يجتمع فيه الشعراء والمغنون في صدر الإسلام، وبين «صالون» «ميّ» الذي كان يجتمع فيه الأدباء والمفكرون في هذا العصر الحديث.

ولقد كانت «ميّ» أيضًا مولعة بالغناء.. كانت تغني. قال الدكتور طه حسين:

ما أكثر الليالي التي إنصرف فيها الزائرون جميعًا، ولم يبق منهم إلا الأستاذ لطفي السيد ومحمد حسن المرصفي وأنا. وفي ذلك الوقت كانت «ميّ» تفرغ لنا حرة سمحة، فنسمع من حديثها ومن إنشائها ومن عزفها ومن غنائها.

ويظهر أني لن أنسى صورة «ميّ» حين تغنينا أغنية لبنانية مشهورة (يا حنينه)، وتغنينا في اللغات المختلفة، وفي اللهجات العربية المختلفة أيضًا.

هذه هي أسطورة «ميّ».. وهذه هي حقيقتها، وليس أجمل من الأسطورة إلا الحقيقة، ولا أجمل من الحقيقة إلا الأسطورة!

أوبريت جميلة

الفصل الأَوّل

المشهد الأول

في أثناء عزف الإفتتاحية الموسيقية يفتح الستار ويضاء جزء من مقدمة المسرح، في حين يظل الجزء الخلفي مظلمًا. وتدخل جميلة إلى الجزء المضيء من المسرح، وقد بدأ القلق والحذر في خطواتها ونظرات عينيها، وهي تحتضن في صدرها مجموعة من الأوراق، ثم تقف فجأة، وتستدير إلى الناحية الأخرى إستعدادًا للهرب، فقد شعرت بأن هناك من يتعقبها... وفي هذه اللحظة يلحق بها عدد من الجنود الفرنسيين، فتحاول جميلة أن تمزق ما تحمله من أوراق، لكن الجنود يسادرون ويستولون على الأوراق، ويلقون القبض عليها ويقودونها إلى خارج المسرح في قسوة ...

وهنا تنطفئ الأنوار تمامًا، وتنتهي الإفتتاحية الموسيقية. بعد ذلك تبدأ موسيقي هامسة مع دخول «الراوية» من المكان نفسه الذي خرجت منه جميلة.

والراوية سيدة جزائرية، تشتغل بالتدريس، وهي صديقه لأسرة جميلة.

وعند دخولها تتلفت حولها، وتبدأ تحكي بصوت خافت قصة جميلة.

الراوية: لا أكاد أصدق ما حدث.. ولكني رأيته!..

جميلة تبيت في السجن!.. كيف؟.. لقد عرفتها طفلة، وتلميذة في مدرستي، وطالبة في الجامعة، وفتاة وجدت أحلامها في إستقلال الجزائر، ووجدت فتى أحلامها في واحد من الفدائيين الجزائريين.. لقد كنت أتوقع أن أراها في بيت الزوجية.. فرأيتها اليوم في السجن.. في الزنزانة.. حاولت أن أبقي معها، فشدني الجنود الفرنسيون من شعري، ويركلون بأقدامهم، وأخرجوني، وأغلقوا عليها وحدها باب الزنزانة...

وبعد فترة يدخل محمود وأنفاسه لاهثة، وقد بدأ عليه الفزع، وخلفه الأب والأم.

محمود: أبي..

(وتحتبس الكلمات في حلقه)

الأب: ماذا جرى؟

الأم: (تنظر إلى إبنها، وتحاول أن تسأله عن جميلة، فتخنقها العبرات، وتتجه بعينيها إلى الراوية وتقول) ما الذي حدث؟

الراوية: (ذاهلة النظرات)

الأب: لماذا لا تتكلمين؟

الراوية: لقد قبضوا على جميلة..

الأم: (تدق على صدرها وتقول): من الذي قبض على جميلة؟

الراوية: الذين قبضوا على الجزائر!

محمود: العساكر الفرنسيون؟

الأب: (يخاطب الإبن) هل رأيتهم وهم يعتقلونها؟

الراوية: أنا رأيتهم..

الأب: ما الذي فعلته جميلة حتى يعتقلوها؟

الراوية: لقد ضبطوا معها منشورات، وحاولوا أن يعرفوا منها أسماء الذين تسلمت منهم هذه المنشورات.. ولما رفضت زجوا بها في السجن وخصصوا بها زنزانة..

الأب: هل حمل المنشورات جريمة؟!

الراوية: يالسخرية القدر.. إن فرنسا ترتكب في بلادنا كل يوم جرائم يندى لها جبين كل إنسان، إلا إنسان الجيش الفرنسي!

الأب: الأبرياء في السجون، والمجرمون خارج السجون، بل هم الذين يسجنون الأبرياء؟! محمود: إسمعوا.. إن أصوات خطوات كثيرة تقترب منا..

(وفي هذه اللحظة تدخل البيت قوة مسلحة من الجيش الفرنسي، وتأمر الموجودين بألا يتحركوا.. ويبدأ الجنود يفتشون البيت بعنف وقسوة، ويدور حوار بين قائد القوة ووالد جميلة)

القائد: أين والد جميلة؟

الأب: هنا... أنا..

القائد: هل أنت فدائي أيضًا؟!

الأب: أنا جزائري أيضًا!

القائد: هل في البيت منشورات أخرى؟

الأب: البيت أمامكم... فإبحثوا حتى الصباح..

القائد: ليس عندنا وقت للبحث أكثر من ذلك.. لقد رتبنا لك موعدًا الآن لتكون مع إبنتك...

الأب: هل سمحتم بزيارة جميلة في السجن؟

القائد: السجن لا يستقبل الزوار.. السجن يستقبل المعتقلين فقط!

الأم: (تصرخ، وتدفع أحد الجنود بيدها وهي تصرخ): خذوني إلى السجن: وسأقلبه رأسًا على عقب، حتى أجد المنشور المقدس الذي إغتصبتموه مني.. بنتي !

(وهنا يقتاد الجنود الفرنسيون الأب، وهم ينزلون به أشد الإهانات، يركلونه بالأقدام، ويدفعونه ببنادقهم إلى الباب فيقول لهم):

الأب: شيئًا من الإنسانية!..

أحد الجنود: لا إنسانية مع العرب..

الأب: بل لا إنسانية إلا في العرب..

القائد: (يضرب الأب في ظهره)

الأب: إلى أين؟

القائد: إلى السجن.. ألا تريد أن تكون مع جميلة؟

الأب: ولماذا تسجنونها؟!

القائد: ستعرف هناك أنها تستحق الشنق!

الأم: جميلة.. بنتي.. لا تشنقوها.. اشنقوني أنا!

الأب: ولماذا تسجنونني؟

القائد: أنت مسئول عن إبنتك..

الأب: إفرجوا عنها إذًا، وإسجنوني وحدي..

القائد: في إستطاعتك أن تنقذ بنتك.. إنصحها بأن تعترف!

الأب: بماذا تعترف؟

القائد: إنصحها أن تذكر إسم من أعطاها المنشورات..

الأب: إنني لا أعرف أنها إرتكبت جريمة حتى أنصحها بأن تعترف! أو لا تعترف!

الأم: أنتم قتله..

القائد: إخرسي..

(ويشد الأب من ذراعه، ويصوب نحوه الجنود بنادقهم، ويسوقونه

إلى خارِج البيت. وبعد ذلك تطفأ الأنوار تمامًا على خشبة المسرح)

* * *

المشهد الثاني

(يعود الضوء على المسرح إلى الظهور تدريجيًا، وتشاهد جميلة وهي ملقاة في زاوية من أرض الزنزانة. ويدخل عليها كبير السجانين ومعه إثنان من مساعديه وإحدى السجانات، ويحيونها في رقة مفتعلة. فتنظر إليهم ولا تتكلم.

كبير السجانين: (وقد رسم على فمه إبتسامة عريضة) لا نريد منك أكثر من أن تعترفي بأسماء الفدائيين الذين أعطوك المنشورات وسنطلق سراحك فورًا..

(تظل جميلة صامتة ويعود كبير السجانين ويقول لها): أنت في عمر بنتي.. كم يؤلمني أن تتعذبي... إعترفي.. وتأكدي أن إعترافك سيكون قرارًا رسميًا بالإفراج عنك، وعن أبيك الموجود هنا في السجن.

جميلة: أنا لا أعرف شيئًا حتى أعترف به!

(وهنا ينتحي كبير السجانين بالسجانة بعيدًا عن جميلة، ويدور بينهما حوار هامس، وتسمع السجانة وهي تقول له):

السجانة: مفهوم.. مفهوم..

(ثم يخرج الجميع ماعدا السجانة، فإنها تقترب من جميلة، وتبتسم لها، وهي تقدم إليها طعامًا وبطانية ودورق ماء وتقول مخاطبة جميلة): إنتبهي لنفسك يابنتي.. فأنت شابة صغيرة، نابضة بالجمال والحيوية.. وأنا لا شأن لي بالسياسة، ولكني أخاطبك كأم.. حرام يابنتي أن تتعذبي.. ومن يدري؟ لعلهم يشنقونك!.. وفي يدك أن تنقذي نفسك من العذاب، ومن المشنقة.. إعترفي يابنتي.. إعترفي..

جميلة: دعيني وحدي..

السجانة: هل يضايقك وجودي هنا؟

جميلة: أنا أكره اللصوص!

السجانة: وهل أنا من اللصوص؟..

جميلة: أنت من فرنسا!

(تبتسم السجانة في مرارة وسخرية ثم تقول):

السجانة: مسكينة!.. لقد خدعوك، وصوروا لك فرنسا بهذه الصورة الزائفة.. ليس الفرنسيون لصوصًا.. إن فرنسا -يابنتي- هي التي أعلنت حقوق الإنسان بثورتها الكبرى!.. فكيف أفهموك أنها سارقة؟

جميلة: إن الجائع الذي يسرق رغيفًا يصبح في نظر القانون لصًا!..

السجانة: وما الذي سرقناه منك؟

جميلة: سرقتم شعبي.. سرقتم حريتنا.. سرقتم كرامتنا.. سرقتم لغتنا.. سرقتم بلادنا من قارتها الإفريقية، وجعلتموها جزءًا من فرنسا الأوربية!

السجانة: إني أعذرك.. فمن كان في مثل سنك يسهل عليه أن ينخدع ولكن دعينا من هذا.. إسمعي.. ليس مطلوبًا منك أكثر من أن تعترفي بأسماء من حرّضوك على هذا العمل.. بل إن إسمًا واحدًا يكفي!

جميلة: لا أعرف أحدًا..

السجانة: إني أخاف عليك من عنادك.. لكن دعينا مر هذا.. إسمعي لا تنسى أن تغطي جسدك بالبطانية.. وكلي قبل أن تنامي.. فالجو بارد.. إشربي ماء، فإنه يعينك على مقاومة البرد.

(وهنا تقدم السجانة الطعام والبطانية إلى جميلة، ولكن جميلة تصد السجانة في عصبية ثم تغني)

جميلة: مادامت أرضي وسمائي نهبًا لضراوة أعدائي فالجوع غذائي والعرى ردائي

(وهنا ينتاب جميلة إعياء شديد، وتحاول أن تنهض، فتقع مكانها، فتتقدم نحوها السجانة، وتقدم إليها دورق المياه، وهي تقول):

السجانة: صوتك مخنوق.. خذي إشربي.. قد هدك الحزن، وأوهى القوي..

(تدفع جميلة الدورق في عصبية، وتقول):

جميلة: لا أشرب الماء ولا أرتوى وفي بلادي ظامئ ما إرتوى

مادام في الدنيا مساكين فالماء في حلقي سكين.

ستار

الفصل الثاني

المشهد الأول

(عندما يفتح الستار نشاهد أحد مواقع قوات الفدائيين وسط الجبال، وقد تفرقوا في المسرح، وكل منهم يقوم بفحص سلاحه وإعداده وبينهم «باسل» الذي يرتدي ملابس متميزة عن ملابس زملائه، وهو يتنقل بينهم، ويوجههم، ثم يجلس وحيدًا في أحد جوانب المسرح، منتظرًا أن ينتهي الزملاء من إعداد أسلحتهم، ويبدو عليه القلق، فينهض واقفًا في عصبية ويعود فيجلس؛ ثم يأخذ يردد هذه الأغنية):

باسل:

حبيبتـــــي أيـــــن ؟.. هنـــــا   لـــــيس هنـــــا إلا أنـــــا!

لكننـــــــــي أحسّـــــــــها   تمـــــلأ عينـــــي ســـــنًا

وينـــــبض القلـــــب بهـــــا   حبًّـــــا، وبأسًـــــا، ومنـــــي

* * *

يـــــالهفتي مـــــن خـــــاطر   أســـود مخنـــوق الخطـــأ

ينســـــل فـــــي جـــــوانحي   لصًّـــا.. علـــى روحـــي ســـطًا

جردنـــــي مـــــن هـــــدأتي   وشـــــدني إلـــــى الجنـــــون

حبيبتـــــــــي أيـــــــــن؟ ألا   جـــــواب لـــــي إلا الظنـــــون؟

(يسكت باسل عندما يدخل «حميدو» إلى المسرح، وهو يحمل صندوقًا ثقيلًا ألقى به بين يدي باسل، ثم سقط بجانب الصندوق من فرط التعب والإعياء. وإلتفّ الفدائيون جميعًا حول الصندوق وهم يضحكون من منظر حميدو. وحميدو في الأربعين من عمره، وقد أطلق لحيته. ويبدو دائمًا في حالة إعياء. وهو معجب بباسل، وقد تأثر به، في حركاته وإشاراته. وباسل يحبه ويثق به على الرغم مما يعرفه عنه من جبن وخوف. وكان باسل يعهد إليه في تنفيذ بعض المهمات السرية، وكثيرًا ما كان حميدو يبدي الإعتراضات ليرجى تنفيذ المهمة، ولكن باسلًا كان يقابل إعتراضاته بالزجر والغضب، ويبادر حميدو إلى تنفيذ ما يأمره به باسل)

باسل: هل أوصلت التقرير إلى القيادة العامة؟

حميدو: (وهو لاهث الأنفاس) قيادة عامة؟!.. ماذا تعني بالقيادة العامة؟

باسل: أين التقرير الذي سلمته لك؟

حميدو: تقرير؟ أي تقرير؟!

باسل: ألم أعطك أوراقًا لتوصيلها إلى قيادتنا؟!

حميدو: أنت أعطيتني أوراقًا؟ أنا أخذت أوراقًا؟ أنا رجل في حالي، لا أعرف أحدًا، وليس لي أي نشاط سياسي ولا غير سياسي!

باسل: (يمسك برقبته ويرفعه من الأرض ويقول له غاضبًا): ما هذا الكلام؟!

حميدو: هذا الكلام هو ما قلته للجنود الفرنسيين عندما إعترضوا طريقي، وأنا عائد من القيادة.

باسل: وأين الأوراق؟

حميدو: الأوراق؟.. سلمتها للقيادة طبعًا!

باسل: كيف إعترض الفرنسيون طريقك؟

حميدو: أوقفوني بالقرب من المستشفى الكبير.. وسألوني عن إسمي، فذكرت لهم إسمي..

باسل: وهل سألوك عن شيء آخر؟

حميدو: سألوني عن حقيقتي، فقلت لهم الحقيقة..

باسل: (يفزع، ويمسك به من رقبته مرة أخرى، ويقول له): **الحقيقة؟!**

حميدو: نعم.. قلت لهم إنني رجل متعطل، ولا أستطيع الحصول على أي عمل.. (يتركه باسل، ويسأله):

باسل: ما هذا الصندوق الذي أتيت به؟

حميدو: آه.. الصندوق؟

(يضحك ويقفز ويتحرك بين زملائه على المسرح، ويقول): **أنا لا أخلو من الجبن، ولكني أيضًا لا أخلو من الحيلة..**

باسل: أنا أسألك: ما هذا الصندوق؟

حميدو: تريدون الحقيقة؟

المجموعة: طبعًا!

أحدهم: قل الحقيقة كاملة..

حميدو: وإذا قلت الحقيقة فهل تتركونني كما أنا؟!

(يمسك رقبته بيده، وهو ينظر إلى باسل)

باسل: (يبتسم لمنظر حميدو، ويقول له): إذا قلت الحقيقة كلها فلن يمسك أحد بسوء...

حميدو: لقد قلت بعض الحقيقة فأمسكت برقبتي.. فماذا يحدث لو قلت الحقيقة كلها؟!

باسل: لا تضيع وقتنا.. وقل لنا ما حدث بالتفصيل..

حميدو: إسمعوني بلا مقاطعة.. عندما أمسك بي الفرنسيون بجانب المستشفى الكبير أقنعتهم بأني رجل فقير لا أجد عملًا، فأشفقوا على حالي، وعينوني عاملًا باليومية في مخازن المعسكرات، وكلفوني أن أنقل الصناديق من المخازن إلى «اللوريات».. وإنتهزت فرصة تغيير الحراس على باب المعسكر، وحملت هذا الصندوق على كتفي، أمام الحراس الجدد، فظنوا أني سأنقله إلى أحد «اللوريات» المخصصة بحمل الصناديق، وسرت في طريقي إليكم، ولم أدرك خطورة هذا التصرف إلا بعدما أصبحت معكم..

باسل: (يبدأ بفتح الصندوق، ويدعو حميدو إلى مساعدته)

حميدو: دعني أفتحه أنا وحدي.. فقد يكون الصندوق مملوءًا بالقنابل!

باسل: هل تخاف عَلَى من القنابل بعدما حملتها أنت على كتفك؟

حميدو: القنابل!.. آه.. أنا.. أنا أحملها، ولا أستعملها!

(يضحك الفدائيون، ويفتحون الصندوق، فيجدونه مملوءًا بكميات نادرة من القنابل، ويهنئون حميدو على هذه المصادفة السعيدة.. ويثور حميدو في عصبية مفتعلة، ويقول) مصادفة سعيدة.. كيف؟!.. هذه ليست مصادفة.. هذه بطولة!

أحدهم: البطولة لا تجيء عفوًا!

حميدو: البطولة نوعان: بطولة تسعى إليها، وبطولة تسعى إليك..

أحدهم (ضاحكا): أنت بطل يا حميدو!

حميدو (غاضبا): هل تسخر مني؟!.. أنا أحب وطني، هذا يكفي كي أكون بطلًا..

(ثم يسير إلى مكان في نهاية المسرح، وهو يقلد باسلًا في مشيته، ويجلس وحده مقلدًا جلسة باسل أيضًا ويردد هذه الأغنية):

ولكـــــــــن الأشـــــــــراف إن كنـــــــــت أخـــــــــاف

فـــــــــالخوف عليـــــــــك وحنينـــــــــي إليـــــــــك

مـــــــن أجلـــــــك أحيـــــا وأمـــــــــوت لتحيـــــــــــا

***

المشهد الثاني

(تدخل الراوية، وقد بدأ عليها الحزن، فيندفع إليها باسل)

باسل: ماذا بك؟

الراوية: لقد قبضوا عليها!

باسل: قبضوا على جميلة؟!

الراوية: وقبضوا على أبيها أيضًا، وهما الآن في السجن يقاسيان العذاب.

أحد الفدائيين: متى حدث ذلك؟

الراوية: منذ يومين...

فدائي ثان: وهل إعترفت جميلة؟

الراوية: لا...

فدائي ثالث: هل إنتزعوا منها المنشورات؟

الراوية: نعم...

باسل: إنها لم تكن تحمل إلا منشورات عادية..

فدائي آخر: أخشى أن تنهار أعصابها، فتعترف...

باسل: أعصاب جميلة مثل بلادها... لا تنهار!

أحدهم: وإذا عذبوها؟

الراوية: لقد عذبوها... ووعدوها بالإفراج عنها، وعن والدها، إذا هي إعترفت بإسم الفدائي الذي أعطاها المنشورات، ولكنها أطبقت فمها، ولم تنطق، وكأنها خرساء!

أحدهم: يجب على جميلة ألا تعترف، مهما تتعذب...

باسل: بل يجب عليها أن تعترف حتى لا تتعذب...

الجميع: (في إحتجاج) ماذا تقول؟

باسل: أنا أعلم أنها لن تعترف... ولكني لا بد أن أقنعها بالإعتراف.

الجميع: (في دهشة وغضب) أنت تقنعها بالإعتراف؟

أحدهم: الإعتراف جريمة...

باسل: إفهموني... بلا غضب... جميلة لا تعرف إلا إسمي أنا، والفرنسيون يعرفونني، فإذا إعترفت لهم بإسمي فلن تعطيهم إلا المعلومات التي يعرفونها!.. (ثم يسأل الراوية): هل لجميلة محام؟

الراوية: لقد إختار لها الفرنسيون محاميًا، ليتولى الدفاع عنها..

(هنا يخرج باسل ورقة ويكتب فيها بعض كلمات يرددها في أثناء الكتابة):

باسل: لا تخافي علينا... إعترفي حتى لا تتعذبي.. نحن في حاجة إليك خارج السجن... بحق الحب... بحق الكفاح في سبيل الوطن.. إعترفي، لكي تعودي إلى صفوف المكافحين.. السلاح في يدك أجدى من الأغلال! (ثم يعطى راوية الورقة) سلمى هذه الرسالة لجميلة...

الراوية: قد لا أتمكن من رؤيتها..

باسل: إتصلي بمحاميها، وهو يستطيع أن يسلمها الرسالة..

(تخرج الراوية من المسرح، وقد بدأ الإنفعال على وجوه الجميع، ثم ينشدون):

مجموعة:

عرضك الغالي على الظالم هان

ومشى العار إليه وإليك

مجموعة ثانية:

أرضك الحرة غطاها الهوان

وطغى الظلم عليها وعليك

مجموعة ثالثة:

قدّم الآجال قربانًا لعرضك

اجعل العمر سياجًا حول أرضك

المجموعات الثلاث:

غضبة للعرض، للأرض، لنا
غضبة تبعث فينا مجدنا
وإذا ما هتف الهول بنا
فليقل كل فتى إني هنا

باسل:

أنـــا ومـــضٌ وبريـــق
أنـــا صـــخر، أنـــا جمـــر
لفـــح أنفاســـي حريـــق
ودمـــي نـــار وثـــأر
بلـدي لا عشـت إن لـم أفتـدي
يومـك الحـرّ بيـومي وغـدي
نازفًـا مـن دم أعـدائك مـا
نزفـوه مـن أبـي أو ولـدي
آخـذًا حريتـي مـن غاصـبيها
سـالبيها، وبروحـي أفتـديها

المجموعات الثلاث:

فــاحترم بالثــأر ذكــرى شــهدائك

بــذلوا أرواحهــم بــذل الســخي

وانــتقم.. إن هنــا أذكــى دمائــك

وهنـــا أمـــي وأختـــي وأخـــي!

المجموعات الثلاث: مرة أخرى ومعهم باسل:

قــدم الآجــال قربانًــا لعرضــك

اجعل العمر سياجًا حول أرضك

غضـــبة للعـــرض، لـــلأرض، لنـــا

غضـــبة تبعـــث فينـــا مجـــدنا

وإذا مـــا هتـــف الهـــول بنـــا

فليقـــل كـــل فتـــى إنـــي هنـــا

ستار

الفصل الثالث

المشهد الأول

المنظر: جانب من سجن الجزائر، ونرى جميلة في زنزانة وقد بدت عليها آثار التعذيب، في وجهها وإنحناء ظهرها... إلخ، وهي تئن من الألم والإعياء...، وبعد قليل يدخل المحامي الزنزانة، وهو يحمل تحت إبطه حافظة أوراق، ومعه السجان الذي يفتح باب الزنزانة، ويقف بالقرب منه، في أثناء زيارة المحامي جميلة... المحامي يهودي من مواليد الجزائر، إسمه «كوهين»، وهو ضالع بعواطفه وأفكاره مع الإستعمار الفرنسي، ويحرص في علاقاته بالجزائريين المسلمين على أن يبدو إنسانًا محايدًا بعيدًا عن السياسة، وهو في المحاماة يحل قضاياه بالوساطة بين المتقاضين، فليس له تجارب كافية في المرافعات، ويعتمد في كسب قضاياه على صداقته للمسئولين)

المحامي: كيف وصلت الأمور إلى هذا الحد؟

جميلة: (تنظر إليه في سخرية، وتقول): لك حق.. كيف وصلت الأمور إلى هذا الحد فقط؟!

المحامي: لا... لا.. أنا لم أقصد... أنا لم أتوقع تطور الموقف بهذه الصورة..

جميلة: أي موقف؟

المحامي: إصرارهم على تعذيبك، إذا لم تعترفي، وإصرارك على عدم الإعتراف...

جميلة: وهل كنت تتوقع غير هذا؟

المحامي: طبعًا.. كيف أتوقع أن... (تقاطعه جميلة قائلة) جميلة: إن أعترف.. أليس كذلك؟!

المحامي: كنت أتوقع أن تخرجي من السجن!

جميلة: وهل عندك وسيلة لذلك؟!

المحامي: الوسيلة عندك أنت!

جميلة: ليس هناك إلا وسيلة واحدة، هي أن تنتصر الجزائر وتنهزم فرنسا!

المحامي: هذه ليست وسيلة... هذه أحلام.. وكما تعلمين لا إعتراض لي على تحقيق الأحلام!

جميلة: أنا لا أعلم ذلك

المحامي: على أي حال... نحن الآن سجينة ومحام... ومن واجبي أن أبصرك بالخطر، وأن أرسم لك طريق النجاة..

جميلة: أنا لا أطمئن إلا إلى الطريق الذي تسير فيه الجزائر كلها... طريق النضال حتى آخر رمق فينا.. وآخر رمق في الطغاة..

المحامي: لو كان وجودك في هذه الزنزانة يحرر الوطن لحبست نفسي في الزنزانة المجاورة!

جميلة: أي وطن تعني؟

المحامي: ألست جزائريًا مثلك؟

جميلة: (تقطب جبينها وتقول): ربما... ولكنك لست مثلي!

المحامي: ماذا تعنين؟

جميلة: لا شيء.. أعني أني سجينة.. وإنك مطلق السراح!

المحامي: الوطنية ليست حماسية تزج بنا إلى السجون؟

جميلة: وهل هناك جزائري خارج السجون؟

المحامي: ما هذا الذي تقولينه؟!

جميلة: عندما يحتل المستعمرون بلدًا يصبح أبناؤه كلهم سجناء! إنني مسجونة في زنزانة، وأنت سجين في بيت.. كلنا سجناء.. بيننا من يبيت بين جدران السجن، وبيننا من يبيت بين جدران القصور!

المحامي: لندخل في الموضوع.. أنت لن تخرجي من هنا إلا إذا إستمعت إلى نصيحتي..

جميلة: وما هي نصيحتك أيها الأستاذ كوهين؟

المحامي: إعترفي...

جميلة: وبماذا أعترف؟

المحامي: إعترفي بإسم قائد الفدائيين...

جميلة: أنا لا أعرفه....

المحامي: أنت تعرفينه، وأنا أعرفه، والسلطات تعرفه!: جميلة: ما دمتم تعرفونه فلماذا تريدون مني أن أذكر إسمه؟!

المحامي: هذه إجراءات عادية...

جميلة: ولكن هدفها غير عادي!

المحامي: ليس لها هدف إلا الإفراج عنك..

جميلة: (تبتسم ساخرة) وهل هم يريدون إطلاق سراحي؟

المحامي: نعم.. وقد وعدوني بذلك.

جميلة: إنهم يستطيعون أن يخرجوني من هذا السجن بدون أن أعترف!

المحامي: لابد من الإعتراف...

جميلة: إنهم يعلمون إسم القائد الذي أعطاني المنشورات، كما تقول، فلماذا يريدون مني أن أعترف؟

المحامي: قلت لك إن هذه إجراءات عادية..

جميلة: لا؛ إنهم يريدون من إعترافي أن يبثوا الشك في قدرة

الشعب على أن يكتم أسرار كفاحه... إنهم يدركون جيدًا أنه لو إعترف إنسان واحد بأي شيء فسوف يسيطر الخوف على كل جزائري.. الصديق يحذر صديقه.. الأم تحذر من إبنتها... الإبن يحذر من أبيه.. والسجينة تحذر من محاميها!

(المحامي يرتبك، وتعبس جميلة، وتستمر في حديثها قائلة): إن الصمت هو جوهر نضالنا.. إننا في كفاحنا لا نفتح أفواهنا، ولكنا نفتح فقط أفواه المدافع والمسدسات!

المحامي: أنا لا أرغمك على شيء، ولكني أقدم لك نصيحة مخلصة صادقة... وثقي أني لا أستطيع أن أخدعك..

جميلة: وغيرك أيضًا لا يستطيع!

المحامي: ألست جندية في جيش التحرير!

جميلة: كل جزائري جندي في جيش التحرير.

المحامي: من التقاليد العسكرية أن يطيع الجندي أمر قائده، ومن واجبك أن تطيعي أمر القائد!

جميلة: وهل أنت القائد الذي أطيع أمره؟

المحامي: أنا رسول القائد إليك!

جميلة: أنت؟!

المحامي: نعم... أنا... (ويخرج من جيبه الورقة التي كتبها باسل،

ويدنيها منها بحيث تستطيع قراءتها، وهو محتفظ بها في يده) إقرئي...

(جميلة تقرأ بصوت مرتفع نص الرسالة)

جميلة: (لا تخافي علينا... إعترفي حتى لا تتعذبي..

نحن في حاجة إليك خارج السجن.. بحق الحب... بحق الكفاح في سبيل الوطن.. إعترفي، لكي تعودي إلى صفوف المكافحين... السلاح في يدك أجدى من الأغلال!

(وهنا تنزع جميلة الورقة من يد المحامي وتمعن النظر فيها، وتتأكد أن الرسالة بخط باسل، وموقع عليها بإمضائه، فتصمت)

المحامي: أظن أنك ستعترفين!

جميلة: لا.. لن أعترف!

المحامي: لقد قرأت الرسالة بنفسك.. إنها ليست رسالة من صديق إلى صديقته. إنها أمر من قائد إلى جندي! جميلة: ما دمت في السجن فليس لي قائدًا أطيع أوامره إلا ضميري!

المحامي: أنت لا تعلمين مدى العذاب الذي ينتظرك إذا لم تعترفي!

جميلة: أعرف... ولن أعترف!

المحامي: لقد وافقت السلطات على إعطائك مهلة مدتها أربع وعشرون ساعة، لكي تحسني التفكير... ففكري بهدوء! (وهنا يخرج المحامي، وتخفت الأنوار في المسرح، وتستغرق جميلة في أفكارها، تبدو شبه نائمة، ويخيل إليها أن باسلًا موجود معها، وأنه يخاطبها وتخاطبه... وتضاء المنطقة التي فيها باسل بالنور الأزرق بحيث يبدو باسل كالشبح)

جميلة: يا حبيبي في دمي صوتك ينساب يغني ويدوي

مالئًا نومي وصحوي وإنفعالاتي وأنفاسي وجوي يا حبيبي... يا حبيبي.. لا تخاطبني بألفاظ عدوي كيف تدعوني بإسم الحب أن أذكر إسمك يا حبيبي كيف ألقي لذئاب الغاب لحمك لست أحميك لحبي

لست أحميك لقلبي أنا أحميك لشعبي

باسل: أنا أغضبتك كي أرضي ضميري

جميلة: أنت أذنبت لكي تحمي مصيري

باسل: ليس ذنبًا أن أخاف عليك من سوء العذاب

جميلة: ليس مثل الخوف ذنب وهو لي أقسى عقاب

باسل: هل ترين الحب عيبًا

جميلة: أنا أحببت عيوبك

باسل: لك روحي... ما تريدين؟ أجيبي!

جميلة: قبل أن تغفر لي لن أجيبك

باسل: ما الذي أغفر؟:

جميلة: إغفر لي ذنوبك!

(وهنا تنطفئ الأنوار تمامًا، وتستمر الموسيقي التصويرية، ثم تضاء الأنوار بعد قليل على المشهد الثاني)

***

المشهد الثاني

(يضاء المسرح، فنشاهد مجموعة من الضباط الفرنسيين ورجال الأعمال، وبينهم المحامي كوهين، ومجموعة كبيرة من النساء، والجميع يشربون، ويرقصون في صخب، وتعلو صرخات النساء والرجال، ويترنح ضابط من إفراطه في الشراب، وينام آخر وهو جالس مكانه وكأسه في يده ؛ ونرى كبير السجانين وقد بدأ عليه السكر الشديد، وأخذ يتنقل بين النساء يحييهن ويداعبهن بالقبلات والأحضان، ويغني الجميع هذه الأغنية الخليعة):

المجاميع:

هيا نشرب فالخمر كثير
الدنيا كأس في فم سكير
ارشف دنياك
وحذار أراك
مثل النسّاك
أو مثل الواقف في الركن هناك
أغرق لي أمسى في رشفة خمر
من غير الكأس ما قيمة عمري

هيـــا نشـــرب فـــالخمر كثيـــر

الـــدنيا كـــأس فـــي فـــم ســـكير

(هنا يقترب كبير السجانين من المحامي كوهين. وهو يترنح، وينظر في ساعته، ويقول):

كبير السجانين: لقد انتهت المدة المحددة لجميلة، ولم تعترف.

المحامي: أظن أنها ستعترف بعدما شرحت لها الظروف..

كبير السجانين: أعتقد أنها ستعترف لظروف أخرى...

هاهاها... (ويشير إلى الضباط وقد علت قهقهاته

ويقول لهم): تعولوا بنا إلى جو أكثر مرحًا...

أحدهم: إلى أين؟

كبير السجانين: «إلى الكباريه»... إلى السجن...

(ويمشي وقد أمسك بيده زجاجة نبيذ عنقها طويل، وترتفع ضحكاته بطريقة هستيرية، ويتبعه الجميع إلى خارج المسرح... ثم تطفأ الأنوار)

ستار

الفهرس